

محمد رضا الشبيبي

أدب المغاربة والأندلسيين

في أصوله المصرية ونصوصه العربية

دار اقرأ

ادب المغاربة والاندلسيين

محمد رضا الشبيبي

ادب المغاربة والاندلسيين

في اصوله المصرية ونصوصه العربية



للنشـر والتوزيع والطباعة

الطبعة الثانية
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

دار اقرأ
بيروت - الرملة البيضاء - سنتر ملكارت التجاري - ص.ب. : ١٣٥٨١٨ - هاتف : ٨٠٦٢٥٢

المقدمة

I

« أدب المغاربة والأندلسيين في أُصوله ونُصوصه » يصدر للمرة الثانية بعد ان اصدره المغفور له الأستاذ محمد الشبيبي المرة الأولى بالقاهرة عام ١٩٦٠ . وهو شأنه في ذلك شأن محاولته الأخرى عن الفُوطي ، دراسة للقسم الأندلسي من كتاب « خريدة القصر وجريدة اهل العصر » للعماد الإصفهاني الكاتب .

عندما ألقى الأستاذ الشبيبي محاضراته على طلاب معهد الدراسات العربية العليا بالجامعة العربية لم يكن القسم الأندلسي من كتاب العماد قد نُشِرَ ، لذلك جاءت المحاضرات تحليلا يتسم ببعض الاستطراد لمحتويات هذا القسم . أما اليوم فهناك طبعتان للقسم المذكور إحداهما مصرية والأُخرى تونسية . لهذا يمكن تلافي بعض وجوه النقص وشوائب الخطأ والتجاوزات في بعض التفاصيل .

وليس هذا فقط . فالدراسات الأندلسية قطعت منذ ذلك الحين شوطا لا بأس بها ؛ من حيث توافر المزيد من المصادر ، ومن حيث تكاثر الدراسات والبحوث الحديثة . ويبيِّن هذا الآن بالمقارنة مع ما كتبه الأُستاذ الشبيبي أنّ بعض ما كان مجهولا صار في حيِّز المعروف ؛ كما أنّ بعض الأخطاء السائدة قد جرى تلافيها استنادا الى ما استجد نشره من مصادر . وتبقى دراسة الأستاذ الشبيبي رغم ذلك صالحة للمقارنة ، ومحتوية على

بعض المهمّ والممتع الذي يَحسنُ عدم تجاهله .

II

يـدرس الاستاذ الشبيبي في البـداية مصـادر العماد عن الأنـدلس ؛ شعرائها ، وكتّابها ، وسياسيّيها (وكلّهم من الكُتّـاب والشعراء تقـريبا) . وهنا يبدأ بعض الجديد بالظهـور . فهو يصحِّـح بعض الأخطاء السـالفة ؛ لكنه لم يستطع مثلا الاطّلاع على كتاب **الـذخيرة** لابن بسـام بكامله ؛ وهـو أهمّ المصـادر في ذلك عن الأنـدلس . والكتاب الآن معـروض لناظـرنا في نشرة علمية من تحقيق د . إحسـان عبّاس في تسعـة مجلدات . ويُلْقِي هذا الأمـر ضوءا عـلى مسألـة أُخرى تتصـل بطبيعـة مصادر أو مـراجع الشبيبي لدراسته التحليلية ؛ تلك التي استخدمهـا للمقارنـة . إنه استعمـل بشكل رئيسيٍّ بالاضافة الى مخطوطة الخريدة كتاب **المعجب** للمراكشي . والمُعْجبُ لا يـذكر من أخبـار الاندلس التـاريخية إلاّ مـا اتصـل منهـا بـالمغـرب أيـام المُـرابطين والمـوحِّدين . أمـا من قبل ومن بعـد فقد جـرت دراسات لحسين مؤنس ومحمـود مكي وإحسان عبّـاس في التاريـخ الأندلسي كـان يمكن ان تفيد في إيضاح الكثير من الأمور التي ظلّت مستغلقة على الأستـاذ الشبيبي بسبب نقص المصادر والمعلومات .

III

بعـد ذلك يبـدأ الاستـاذ الشبيبي بـالتحليـل المـوضـوعي للخـريـدة الأنـدلسية فينـاقش مسألـة النسب الفاطمي التي وردت في حـاشية إحـدى مخطوطات الكتاب ، فيميل الى إثبـات نسب الفاطميـين دون ان يفصّل في ذلك . والمسألـة كما هـو معروف شـديدة التعقيـد تحتاج إلى التبسط وإن لم تكن تتصل بموضوعه بسبب وثيق .

وعندما يعالج المحاضر « مأساة المعتمد بن عبّاد » في علاقته بيـوسف

بن تاشفين ، يقف الى جانب يوسف ، لكنه يتبنى الرأي الذي كان سائداً عن المرابطين في موقفهم المناهض للعلم فيما عدا الآثار . والحقُّ ان ما استجد من بحوث تُثبتُ أنَّ الامر لا يتعدى صورة تاريخية خاطئة عنهم فقد انكشفت صفحة اخرى عن علاقتهم بعلم أصول الدين ، وعلم المشرقيين ، وبعض العلوم العقلية الأُخرى . ولا يخفى ذلك تماما على المحاضر ؛ لكنه يصل اليه بطريقة ، تخمينية ومواربة في مناقشة علاقة الغزالي بالمرابطين . وهذه المسألة بالذات لا يُنظر إليها من وجه واحد . فكتاب الاحياء للغزالي الذي حمل عليه من المغاربة المازري والطرطوشي ، حمل عليه من المشارقة كثيرون منهم ابن الصلاح وابن تيمية ؛ بل من هو أكثر اعتدالا منهما : النووي . والقضية تتصل بشكل ما بموقف المالكية من علم الكلام والجدل في الدين ، وليس الأمر في ذلك خاصا بالمرابطين ، أما فيما يتعلق بعلاقة ابي بكر ابن العربي بالأمر كله فيحسن الآن الرجوع الى دراسات د . إحسان عباس عن ذلك .

بعد هذا ينصرف المحاضر الى تتبع تراجم بعض الشعراء والكتاب المشهورين تتبعا تحليليا يغلب عليه العرض المجرد الذي يلجأ لشيء من الاستطراد . ولم تكن دواوين اكثر هؤلاء بين يديه آنذاك . أمّا الآن فبين أيدينا دواوين وكتب لأكثرهم تكمل اجزاء الصورة التي رسمها صاحب **الخريدة** استنادا الى مصادر أندلسية ومغربية .

IV

قصد الشبيبي من وراء محاضراته التوصل لايضاح العلاقة الثقافية الوثيقة بين المشرق والمغرب الإسلاميين حتى بعد سقوط الدولة الفاطمية ؛ بل وفي أواخر العصر الأَيُّوبي . وقد استطاع أن يبيّن أنّ المصريين كانوا يملكون مئات الكتب عن الغرب الإسلامي ، وان الغرب الإسلامي شديد الاتصال بهم عبر رحلات الكتب والناس .

وقد نجح المحاضر في بيـان ذلك . وأضـاف اليه نجـاحه في عـرض بعض الجديد المستنبط رغم غياب المصادر المقـارنة آنـذاك . فيبقى الكتاب المعروض في نشرته الثانية اثراً من آثار الأستاذ الشبيبي جديراً بالتقدير .

د. رضوان السيد

ادب المغاربة والأندلسيين
في أصوله المصرية ونصوصه العربية

كتاب « خريدة القصر وجريدة أهل العصر » للعماد الكاتب الأصفهاني غني عن التعريف ، والكتاب ـ كما لا يخفى ـ يقع في عدة أقسام نشر منها حتى اليوم قسم شعراء العراق صدر منه جزء واحد ، والثاني قيد النشر . ومن أقسام الخريدة قسم آخر يتضمن شعراء الشام ، نشر بدمشق في جزءين وقسم ثالث يحتوي على شعراء مصر وصقلية والقيروان والمغرب والأندلس ، نشر منه في القاهرة ما يخص مصر فقط في جزءين . أما الجزء الخاص بالشعراء الآخرين فإنه بقي مخطوطاً ، وفي خزانة المجمع العلمي العراقي نسخة منه في مجلدين صورت على نسخة دار الكتب المصرية ، وهي مصورة عن مخطوطة المكتبة الأهلية في باريس ولم تؤرخ سنة نسخها ولكنها نسخة قديمة ، ومن مخطوطات المجمع العلمي العراقي جزء من هذه النسخة خاص بشعراء الأندلس والطارئين على الديار الأندلسية تقع في مائة وأربع وعشرين صفحة مضى على نسخها ثلاثمائة وثلاث وسبعين سنة ، جاء في آخرها ما نصه : « تم كتاب خريدة القصر وجريدة أهل العصر ، وكان الفراغ من نسخها عشية نهار الأحد الحادي والعشرين من جمادي الآخرة سنة سبع والف هجرية » وكل ما في هذه النسخة الثانية المجزأة يشهد بسقمها حتى تتعذر أحياناً قراءة نصوصها أو تقويمها أو إصلاحها[1] .

هذا ويلاحظ أن عدداً من أعلام الأدب في المائة السادسة كالفتح بن خاقان صاحب « القلائد » و« المطمح » وابن بسام صاحب « الذخيرة » والحظيري البغدادي صاحب « الزينة » والعماد الكاتب الأصفهاني صاحب

---

(١) من ذلك مثلاً أن الناسخ الماسخ يكتب كلمة « هارة » وهو يريد سارة وكلمة « حجازى » وهو يريد « حجارى » وكلمة « الصقيلى » وهو يريد « الصقلى » وهذا أهون ما في هذه النسخة من الأغلاط .

« الخريدة » وآخرين من هذه الطبقة مشارقة ومغاربة ، عنوا بتصنيف الكتب في طبقات شعراء عصورهم وما إليها ، وهو أمر يدل على جسامة تلك النهضات الأدبية . على أن هؤلاء الأدباء المصنفين لم يتفقوا على أسلوب واحد فيما صنفوه بل كانت لهم أساليب شتى .

ومن الفروق الملحوظة بين أساليب المشارقة والمغاربة في معالجة هذه الموضوعات أن المشارقة كالثعالبي والباخرزي والحظيري والعماد الأصفهاني كانوا إلى الإحاطة والاستيعاب في مناهجهم فكتبوا عن شعراء عصورهم من جميع البلاد ولم يقصروا بحثهم على شعراء إقليم معين ، حتى أن الثعالبي أفرد باباً ذكر فيه جمهرة من مشاهير شعراء المغرب والأندلس وكتابها ، وحذا العماد الأصفهاني حذو الثعالبي أو زاد عليه فأفرد قسماً ضخما لشعراء الأندلس وصقلية والقيروان والمغرب بأقسامه الثلاثة . والغالب ان المشارقة رزقوا في تلك الأعصر رؤساء اتسعت آفاقهم وبعدت غاياتهم ، فكانوا مشغوفين بالأدب معنيين بالطلب أكثر من غيرهم . وقد حصلوا على دواوين الشعراء ومجاميعهم ، وقَصَدَهم أهلها من كل فج عميق بل كان أعلام الأدب منهم يشدون الرحال الى أولئك الرؤساء ويتحفونهم بأشعارهم وأشعار غيرهم من هذا القبيل ، قال الثعالبي(١) . « أخبرني جماعة من اصحاب الصاحب ابن عباد أنه كان يستميل الطارئين عليه من تلك البلاد ـ يعني بلاد الشام ـ ما يحفظونه من تلك البدايع واللطايف حتى كتب دفترا ضخم الحجم لا يفارق مجلسه ولا يملأ عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه وفي شق قلمه ، فطوراً يحاور به في مخاطباته ومحاوراته وتارة يورده كما هو في رسائله » وتلى ذلك كلمة اخرى للثعالبي ذكر فيها أبا بكر الخوارزمي وأنه دوخ بلاد الشام وحصل في مجمع الرواة والشعراء ومطرح الغرباء والفضلاء وانقلب عنها وهو احد افراد الدهر وامراء النظم والنثر . ويعني الثعالبي في الغالب بمجمع الرواة والشعراء وبمطرح الغرباء والفضلاء دولة بني حمدان في عصر سيف الدولة منهم خاصة ، ثم ذكر الثعالبي من هذا القبيل القاضي الجرجاني « فإنه

(١) مقدمة اليتيمة .

جنى ثمارها واستصحب آثارها حتى تطبع بطبع البحتري » الى غير ذلك .

من هذه الناحية جاءت تصانيف المشارقة الذين مر ذكرهم وأمثالهم أكثر استيعابا وإحاطة بذكر فحول الشعراء من جميع البلدان في تلك العصور خلافاً لتصانيف أولئك المغاربة والأندلسيين في الأدب خاصة ، فالفتح بن خاقان صاحب « القلائد » و« المطمح » قصر كتبه على أعلام الأندلس في الشعر والأدب وما إلى ذلك ، وابن بسام صاحب الذخيرة في محاسن شعراء الجزيرة حذا حذوه في ذلك وإن عُني بذكر طائفة يسيرة من شعراء المشرق مثل الشريف الرضي ومهيار الديلمي والتهامي إنساءً بأبي منصور الثعالبي في كتاب اليتيمة . ولا ينكر ان مصنفات بعض الأندلسيين والمغاربة شاهدة بسعة اطلاعهم وكثرة روايتهم وحفظهم لنصوص قيمة وردت في كتب المشارقة على وجه يستفاد منه ان كتب المشارقة هي الأصول المعول عليها في الدراسة ، كما يتضح ذلك لمن يتصفح مؤلفات ابن عبد ربه صاحب « العقد » وابن رشيق صاحب « العمدة » .

ويبدو لنا أن اعلام الأدب من الأندلسيين وأهل المغرب ، ومن أشهرهم الفتح بن خاقان وابن بسام ، لاحظوا ولع الأندلسيين وفتنة أهل المغرب بأدب المشرق أكثر من التفاتهم إلى أدب أبناء جلدتهم . ومن الأمثلة على ذلك إكبار الأندلسيين لكتاب « اليتيمة » حتى أنهم عنوا بتاريخ وصولها إلى الأندلس وسموا أول من اوصلها الى البلاد المذكورة وإلى ذلك مرد هذا المنهج الذي نهجه صاحب « القلائد » وصاحب الذخيرة في الانتصار لأدب الأندلسيين والاحتجاج لتفوقه وعلو مكانته أو مستواه بين الآداب كما صرح بذلك ابن بسام في مقدمة الذخيرة . والحق ان علماء المغاربة والأندلسيين ذهبوا في النسج على منوال المصنفين والمؤلفين من المشارقة والعراقيين الى أبعد من ذلك ؛ فأبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني ألف كتاب « الزمان » عارض به كتاب « كليلة ودمنة » وأحمد بن محمد بن فرج الجيّاني ألف كتاب « الحدائق » للمستنصر تاسع أمراء بني أمية في الأندلس عارض به كتاب الزهرة لأبن أبي داود الأصفهاني .

ويستفاد من كتاب المطرب لأبن دحية أنه اطلع على هذا الكتاب وهو يفضله على كتاب الزهرة . وألف المظفر بن الأفطس صاحب « بطليوس » الذي ملك القسم الشمالي من بلاد الأندلس كتاب « المظفري » عارض به « عيون الأخبار » لأبن قتيبة ويقع في نحو من عشرة أجزاء ضخام ، قال المراكشي في « المعجب » وقفت على أكثره[1] . وألف أبو الحجاج يوسف ابن محمد البياسي الأندلسي كتاباً في الحماسة على منوال كتاب أبي تمام بعد قراءته له[2] . ويستفاد من التأمل في تاريخ آداب اللغة العربية في الأندلس أن حظ أبي تمام وديوانه وكتبه من دراسة الأندلسيين من الحظوظ الموفورة ، فقد وضع الأدباء في المغرب والأندلس أكثر من كتاب على نمط كتاب الحماسة لأبي تمام ، وهذا الأديب أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي من شعراء آواخر المائة السادسة وكان نهاية في حفظ الأشعار القديمة والمحدثة جمع كتابا على وضع الحماسة لأبي تمام سماه « صفوة الأدب وديوان العرب » قال ابن خلكان وهو عند أهل المغرب كالحماسة عند اهل المشرق وهو كثير الوجود بين أيدي الناس[3] فهو ثاني كتاب يضعه الأدباء الأندلسيون والمغاربة على غرار كتاب الحماسة . وهذا ابن بسام ألف كتاب « الذخيرة » حاذياً حذو الثعالبي في كتاب « اليتيمة » . وألف الرشاطي المحدث الأندلسي في منتصف المائة السادسة كتاباً على غرار كتاب « الأنساب » للسمعاني سماه « اقتباس الأنوار » ذكر فيه الرواة وحملة الحديث وغيرهم من مختلف الطبقات .

وفي باب الموازنة بين شعراء المغاربة والمشارقة أو حكمائهم أو علمائهم يقولون عن ابن هاني « متنبي الغرب » ، وعن ابن زيدون

---

(1) المعجب ص ٤٩ .

(2) قال ابن خلكان ، طالعت نسخة هذا الكتاب ، وفيها قراءته عليه ، وعليها خطه في شهر ربيع الأول سنة ٦٥٠ ، ونقل ابن خلكـان بعد ذلك نبذة من مقدمة هذا الكتاب .

(3) الوفيات (٢/٣٧٥) .

أنه أطلع على هذا الكتاب وهو يفضله على كتاب « الزهرة » .

« بحتري الغرب » ، وعن ابن خفاجة أو ابن عمار « صنوبري الغرب » ، وعن ابن طفيل : « ابن سينا الأندلس » وقيل لأبن عبد البر « حافظ المغرب » كما قيل للخطيب البغدادي « حافظ المشرق » . واستعاروا أسماء حواضر الشرق فأطلقوها على حواضر معروفة في الأندلس والمغرب فشبهوا إشبيلية بحمص ، وغرناطة بدمشق ، وفاس ببغداد ، إلى غير ذلك . وأحدثوا بلدة سميت البصرة تشبيها لها ببصرة العراق . ولا عجب فالشرق هو الأصل والغرب هو الفرع ، على أنه قد يجيء في الفرع ما في الأصل وزيادة كما يقول علماء العربية .

هذا ومما يذكر للمغاربة والأندلسيين ، ويدل على فضلهم وتواضعهم ، ضرب من الاعتراف بسبق المشارقة وتفوقهم في العلم والتعليم والبحث والتأليف . ولا يخفى أن ابن خلدون عقد في مقدمته فصولاً عرض فيها للفوارق الظاهرة بين المشارقة والمغاربة من النواحي المذكورة استناداً إلى آراء من رحل من أهل المغرب والأندلس إلى بغداد والمشرق وذلك لتلقي الرواية وتحمل الحديث وطلب العلم عن أهل تلك البلاد[١] .

فروق في الأساليب :

كان كل من ابن بسام صاحب « الذخيرة في محاسن شعراء الجزيرة » والعماد الأصفهاني صاحب « الخريدة » من أبناء المائة السادسة ، وقد عنيا بتأليف كتابيهما في عصر واحد ، ولهذا لم نجد كتاب الذخيرة من مصادر العماد الأصفهاني ،جاء في ترجمة الكاتب ابن شهيد الأندلسي من كتاب « الخريدة » للعماد « هذا من شعراء اليتيمة » وهو دليل قاطع على أن العماد لم يطلع على كتاب « الذخيرة » لأبن بسام ولم يكن قد حُمل هذا الكتاب إلى المشرق في ذلك الحين . والواقع أن الثعالبي أكثر من إيراد شعر ابن شهيد ونثره في « اليتيمة » وقد حذا ابن بسام حذو الثعالبي وترسم خطاه فيما يتعلق بالترجمة لأبن شهيد[٢] وقد استغرقت أكثر من مائة

---

(١) التربية في الإسلام - بحث مقارن للمؤلف نشر ببغداد سنة ١٩٥٩ (١٥ - ١٧) .

(٢) ابن شهيد الأندلسي كاتب مترسل وأديب أكثر منه شاعرا وقد اشتهرت =

صفحة من « الذخيرة » على أن العماد اعتمد على قلائد العقيان ، من كتب الأندلسيين وعلى مآخذ غير قليلة من مؤلفات المصريين والقيروانيين والصقليين . وسنعود إلى ذكر مآخذ العماد في أقسام كتابه في بعض الفصول الآتية ، وقد قصرنا هذا الفصل على الإشارة إلى بعض الفروق الظاهرة في منهج كل من هذين المصنفين .

١ - السِّيَرُ والتاريخ :

وجدنا في الذخيرة تراجم لشعراء مغاربة وأندلسيين ورد ذكرهم في كتاب « الخريدة » ولكنَّ ابن بسام كان أطول نَفَساً في ترجمته لمن يترجم له منهم ، وكان في المنهج الذي نهجه طرافة لا توجد في منهج العماد إذ أن ابن بسام أَلَمَّ بذكر الأحداث والواقعات وعني بالسير والتواريخ أحياناً ، وقد لاحظ تقصير الثعالبي في هذه الناحية وأورد فقرة في نقد أسلوب صاحب اليتيمة فقال : « وَعَدت في هذا الكتاب بأن أتخلل أشعار الشعراء بما عسى أن يتعلق بأذيالها من أنباء فتن ذلك الزمان في هذه الجزيرة وفي نبذ من وقايعها ليجمع هذا المجموع بين الشعر والخبر . فإني رأيت أكثر ما ذكره الثعالبي ذلك محذوفا من أخبار قائليه ، فأملَّ قارىءَ كتابه منحاه وأحوجه إلى طلب ما أغفله من سواه » وهي ملاحظة معقولة تنطبق في كثير من الأحيان على كتاب « الخريدة » للعماد . فهو عبارة عن مختارات شعرية مجردة عن السير والأخبار ، وعلى هذا تكون فائدتها من الناحية الأدبية أكثر من فائدتها من الناحية التاريخية ، فهي في ذلك من قبيل اليتيمة . ومن رأينا أن العماد الكاتب لا يعذر في ذلك كما يعذر غيره ، فهو مؤرخ معروف جرد غير كتاب في السير والتواريخ وإن غلبت على كتبه صناعة البديع والمحسنات اللفظية .

=رسائله وسارت أكثر من أشعاره في الديار الأندلسية وغيرها ، ونلاحظ أن العماد الكاتب خرج على شرطه في « الخريدة » بترجمته لأبن شهيد لأنه ممن توفي سنة ٤٢٦ فلم يكن من طبقة العماد ولا من طبقة أبيه وعمه وقد أخذ العماد نفسه بالاقتصار على ذكر هاتين الطبقتين في كتاب « الخريدة » .

٢ ـ اتساع الرواية :

للعماد الكاتب صاحب الخريدة طريقة لطيفة في تصنيفها ودأب عجيب في جمع مادتها لا نعرفه عن ابن بسام ، فكان وهو مقيم بالعراق يتسقط مجريات مصر وأخبار الحركة الأدبية فيها مستنداً إلى رواية علماء أو أدباء عراقيين من أهل بغداد أو من أهل واسط أو غيرهما من الحواضر العراقية التي تقلد ـ أعني العماد ـ مناصب التدريس والعمل فيها أو زارها ، فكان يلقى هؤلاء العلماء والأدباء أو يتحرى لقاءهم في الحواضر المذكورة أو يتحدث عنهم أو عن شيوخهم ويروي بواسطتهم أشعار الشعراء المصريين ، ومن فصول قسم شعراء مصر من « الخريدة » فصل عنوانه : « جماعة كتبتُ ما نُقل إليّ من شعرهم بالعراق »[١] ، وقد يستخدم هذه الطريقة وهو في العراق في رواية شعر شعراء الأندلس عن قوم من العراقيين أو من الطارئين على العراق من المغاربة والأندلسيين . هذا وإلى مركز العماد الكاتب ومناصبه التي تقلدها في العراق والشام ومصر مرد تمكنه من هذا الأسلوب الذي يتميز به تميزاً ظاهراً عن ابن بسام . ولا تخفى أيضاً مكانته من القاضي الفاضل فإنه كان قريباً منه كثير الاتصال به حضراً وسفراً ، ولا يخلو اجتماعهما عن بحث أو مفاوضة أو كتابة أو مناقشة في شاعرية شاعر أو ترسل مترسل مما يدخل في منهجه في تأليف « الخريدة » وذيلها ، وكثيراً ما يجد في مجلس القاضي زائراً يستفيد من مذاكرته في ذلك[٢] على أنه كان يقضي جانبا من أوقاته بالجمع والكتابة ماشياً في الطريق أو واقفا على باب مسجد او جالسا في سوق[٣] .

٣ ـ أسلوب الترسل :

ومن الفوارق في أساليب الترسل بين الأديبين أن ابن بسام ينحو في ترسله أحياناً منحى الجاحظ وطبقته ويصطنع ألفاظهم أو عباراتهم

---

(١) قسم شعراء مصر (١٩٩/٢) .

(٢) المصدر السابق (٥٦/١ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٤١) .

(٣) المصدر السابق (١٥١/٢ ، ١٥٦) .

بالذات ، فهو ولا شك شديد الإعجاب بأساليبهم ولا ريب أنه قرأ الجاحظ كثيراً . ومن الواضح ان أسلوب العماد الكاتب بعيد كل البعد عن الأساليب الجاحظية من ناحية طريقته المعروفة في تكلف الأسجاع وإن كانت هذه الطريقة في كتاب « الخريدة » غير ظاهرة ظهورها في كتب أخرى للعماد .

٤ - في الطبقات :

منهج ابن بسام ومنهج العماد في الاقتصار على ترجمة معاصريهم منهج واحد قال ابن بسام : « أما العلماء والشعراء الذين بأفقنا هذا الأندلسي من حين استفتحت الجزيرة إلى آخر دولة بني عامر ، فقد تقدم المصنفون قبلي إلى تدوين نظمهم ونثرهم فأغناني عن ذكرهم ، وإنما سردت ذكر أهل عصري ممن شاهدته بعمري أو لحقه بعض أهل دهري » هذا ما قاله ابن بسام وهو بعينه منهج العماد في « الخريدة » فإنه عني بترجمة أهل جيله أو جيل أبيه وعمه كما قال ، على أن هناك فرقاً ظاهراً بينهما من ناحية أخرى فالعماد الكاتب يعنى في « الخريدة » عناية ملحوظة بذكر مآخذه ومصادره من مصنفات طبقة من الأدباء عاصرهم أو من طبقة شيوخه سواء أكانوا مصريين أم عراقيين أم شاميين أم مغاربة وقيروانيين وأندلسيين ، وهو يتحدث مضافا الى ذلك عن جماعة من شيوخه وأقرانه من جميع هذه البلاد ويخيل إليك وأنت تقرأ كتاب « الخريدة » أن جهد العماد في الغالب لا يعدو النقل والجمع والتبويب ، وفي الخريدة شواهد كثيرة على هذا الضرب المحدود من الجهد ، ومن الأمثلة على ذلك الأبواب الآتية كما جاءت في الخريدة :

١ ـ جماعة ذكرهم ابن الزبير في مجموعه[1] ، والغالب أنه يقصد كتاب الجنان للرشيد ابن الزبير .

٢ ـ جماعة ذكرهم أبو الصلت في رسالته[2] ، والظاهر أنه يقصد كتاب الحديقة .

---

(١) الخريدة (٢/٤١) .

(٢) المصدر السابق (٢/٩١) .

٣ ـ جماعة أوردهم ابن بشرون في كتابه الموسوم بالمختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر[١] . أما ابن بسام فإنه يغفل ذكر المصادر والمآخذ ولا يعنى بهذه الناحية ، ويبدو لمن يتصفح كتابه هذا أنه كثير الاعتداد بنفسه والحديث عنها ولا يخلو كتابه من الإجحاف بحق بعض معاصريه . وإن كان الفتح بن خاقان أكثر إجحافاً وأقل إنصافاً من ابن بسام .

٥ ـ اختيار الدواوين :

ومن العادات التي درج عليها العماد اختيار « الدواوين » فهو يعنى باختيار شعر من يستجيد شعرهم من دواوينهم ويورد تلك المختارات في تراجمهم على ترتيب الحروف الهجائية كما فعل بديوان « حيص بيص » في قسم شعراء العراق ، وأورد ما اختاره منه في ترجمته وهي من أطول تراجم الخريدة فإنها أربت على مائة وخمسين صفحة . وفي قسم شعراء مصر وصقلية والأندلس والمغرب عمل العماد مختارات من ديوان أمية بن أبي الصلت الشاعر الحكيم ، وأوردها في ترجمته على ترتيب الحروف كذلك . ونجد له من هذا القبيل مختارات من ديوان الأمير تميم بن المعز بن باديس صاحب إفريقية عندما ظفر بنسخة من ديوانه في الشام .

٦ ـ في التبويب والتقسيم :

لم يكن العماد الكاتب من رأي الفتح بن خاقان في جملة من المسائل ، وقد أخذ عليه لهجته الجافية في قذف جملة من الشعراء والأدباء

---

(١) قسم شعراء مصر (٢/١١٤) .

وشتم من شتمهم من الحكماء إلى غير ذلك ، ومع هذا لاحظنا أن العماد تأثر بمنهج الفتح في تقسيم خريدته ونسج على منواله في هذا الباب كما يتضح من التأمل في جملة من أبواب الخريدة خصوصاً قسم شعراء العراق ؛ فقد قصر العماد أول أبواب هذا القسم على ذكر الخلفاء العباسيين وأورد منهم عشرة وأثبت لهم أشعاراً في غاية الضعف والهزال فهؤلاء الخلفاء لا يجوز عدهم من الشعراء ولكن العماد قصد من ذكرهم الحصول على بركتهم ـ كما قال ـ وهو عذر غير مقبول . والحق أن العماد أراد بذلك التقرب من سدة الخلافة في بغداد ، واتقاء شر السلطان وكلما ينجم من الأخطار من مزاولة الأعمال السلطانية في ذلك الزمان . ولا يخفى أن العماد اعتقل من اجل ذلك في العراق حتى اضطر إلى الخروج منها إلى الشام ، وقد قَصَرَ العماد الباب الثاني من قسم شعراء العراق على تراجم الوزراء فذكر منهم أكثر من خمسة وعشرين وزيراً ، وعقد الباب الثالث لمحاسن الشعراء واستهله بترجمة « الحيص بيص » . وما أشبه هذا التقسيم بتقسيم الفتح بن خاقان في القلائد فإنه قسَّم كتابه على أربعة أقسام ؛ القسم الأول في الرؤساء وأبنائهم وعددهم ستة ، القسم الثاني في الوزراء وكبار الكتاب وعدد هؤلاء أكثر من عدد الرؤساء ، والثالث في القضاة والعلماء . وخص صاحب « القلائد » القسم الرابع من كتابه بالشعراء والأدباء وهم قوم لا حول لهم ولا سلطان .

الأصول والمآخذ :

تميز اسلوب العماد الكاتب في « الخريدة » عن أساليب جملة من المصنفين في موضوع كتابه بتسمية المآخذ والأصول التي استند إليها ، هذا من جهة ، وهناك من جهة أخرى طبقة من أشياخه ومعاصريه وأقرانه من أهل العلم والآداب وجدناه يكثر من التحدث عنهم في كتابه . هذا ولا يخلو التعريف بهذه المآخذ والأصول من فائدة ، وهو ما توخيناه في هذا الفصل على الطريقة التالية .

مآخذ العماد في قسم شعراء العراق :

تختلف مآخذ العماد في هذا القسم من الخريدة الذي اختص به شعراء العراق عن بقية مصادره في أقسام الكتاب الأخرى على الأكثر . ولا يخلو كتابه من مآخذ عامة استند إليها في جميع الأقسام ، فالعماد وإن كان أصبهاني المولد إلا أنه بغدادي المنشأ والدراسة ، درس في النظامية والتقنية ، ولقي أشهر علماء بغداد في عصره من علماء عربية وفقه وأصوليين إلى أدباء وشعراء ، كما يتضح لنا ذلك من مقدمة الخريدة . ففي هذه المقدمة يقول العماد : « وابتدأت القسم الأول من العراق مزكى عرقي ، ومنشأ حقي ، وموطن أهلي ، ومجمع شملي ، وهو الإقليم الأوسط ، وأهله الراسخون علوما ، الباذخون حلوما ، وقدمت مدينة السلام ، لأنها حوزة الإسلام » هذا نص كلمة العماد ، وسنرى أن له كلمة في شأن مصر والمصريين شبيهة بكلمته هذه عن العراق والعراقيين .

ترجم المصنف لجملة من مشيخته من أهل العراق قرأ عليهم دواوينهم وكتبهم وأورد طرفاً صالحاً من أشعارهم وأشعار غيرهم ، وفي مقدمة مشيخته هؤلاء الجواليقي وله منه إجازة ، وابن الإخوة . كما كان يجتمع بشعراء البلاد المجاورة للعراق ويقرأ شعرهم ودواوينهم عليهم كما فعل بديوان القاضي الأرجاني وديوان الابيوردي وديوان الحيص بيص ، وكانت للحيص بيص هذا صلة بالعزيز عم العماد ، قال العماد بعد الانتهاء من مختار شعره : « لم أر شيئاً من أهاجيه فإنه نزه ديوانه عنها » وممن اجتمع به وتحدث عنه من مشاهير شعراء عصره الأبله البغدادي ، وله ترجمة في الكتاب .

ولما كان للعماد مركزه السياسي المعروف في البصرة وواسط والأهواز حيث تقلد نيابة الوزارة في هذه الجهات ، رأينا الشعراء والأدباء يقصدونه خلال إقامته هناك ، ومن ذلك مثلاً قوله في ترجمته لأبن القاضي الأرجاني

الشاعر إنه لقيه في « عسكر مكرم » سنة ٥٤٩ فأعاره إضبارةً كبيرةً من شعر والده . ويعنى العماد في كتاب الخريدة ببيوتات بغداد وبالترجمة لأسر توارثت الأدب خلفاً عن سلف كآل الرُفيل ، وبني هبيرة ، وكانت له صلة وثيقة بالوزير ابن هبيرة وذويه وهم بين شاعر أو أديب تحدث عنهم وروى شعرهم ، ولذلك قال في ترجمة عز الدين محمد بن الوزير بن هبيرة : « له شعر كثير وقلما نظم شعراً الا عرضه علي » كما عني بالترجمة لبني الموصلايا وبني المطّلب ، إلى غيرهم من البيوتات البغدادية . وعني كذلك بإيراد ما قالوه من الشعر أو نظموه في مدح الخلفاء والوزراء ومعنى هذا أنه جرّدَ شطراً كبيراً من قسم شعراء العراق في الخريدة ليكسب به رضا دار الخلافة والوزراء وأصحاب الدواوين . وقد صرح في الخريدة بأنه عاد إلى بغداد من أصفهان سنة ٥٥١ في الأيام المقتفوية قال « وفي ظلها المنشأ وفي فضلها المربي ، وفي جوارها حصل المنى وبخدمتها عُرفتُ » . وأول قصيدة نظمها في المقتفى بعد وصوله الى بغداد بسنة أي سنة ٥٥٢ ، وعهد إليه بعد ذلك بأعمال ديوانية جليلة وولي نيابة الوزارة بواسط والبصرة ، ويلاحظ أنه عني عناية خاصة بتراجم جماعة من خلفاء بغداد صدر بتراجمهم هذا القسم من الكتاب وبالغ في الثناء على سيرتهم وأعمالهم ونسب إلى كل واحد منهم قطعة أو أكثر من الشعر الركيك غالبا ، ولا يخلو ذلك من تصنع . ويقول العماد إن طلب البركة هو الذي بعثه على ذلك .

ويتضح من هذا الفصل علاقة العماد الوثيقة ببني العباس ، هذا من جهة ، ويبدو من جهة اخرى انه من شعراء الديوان ببغداد فقد كان هواه معهم وولاؤه فيهم لنشأته في كنف جماعة من خلفاء بني العباس ووزرائهم ، وصف عصر المستضيء بأنه العصر الذي استخلصت فيه الديار المصرية من الفاطميين وسماهم « الادعياء » أكثر من مرّة . والحق أن صلاح الدين الايوبي نفسه وهو الذي قضى على دولة الفاطميين لم يجرأ على شتمهم بمثل هذا الكلام ، وضمن العماد هذا المعنى في مدح الخليفة العباسي فإنه نظم أكثر من قصيدة يهنيه فيها بفتح مصر وزوال دولة

الفاطميين مع ما كان للسلاجقة من سلطان في العراق . وإن بدأ سلطانهم يتضاءل في هذه الفترة . وكان الفاطميون كما لا يخفى يتمتعون بقسط من السيادة والاستقلال لا يتمتع به العباسيون في بغداد ، وإن كانت دولة الفاطميين على شفا جرف من الانحلال في عصر هذه الطبقة من خلفاء بغداد .

هذا وفيما يلي أسماء جملة من الأصول والمآخذ التي عوّل عليها المصنف في هذا القسم من الخريدة :

١ ـ كتاب الذيل تأليف ابي سعد ـ ويقال أبو سعيد ـ عبد الكريم السمعاني ذيل به على تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، وهو ضخم يقع في أكثر من عشر مجلدات على ما يقول بعض المؤرخين استند اليه المصنف في مواضع عدة من هذا الكتاب ، ويستفاد من بعضها أنه اقتنى نسخة من كتاب الذيل المذكور .

٢ ـ « ذيل التاريخ » لمحمد بن عبد الملك بن ابراهيم المعروف بابن الهمداني ، له ذكر في كتاب « الكامل » لأبن الأثير ، وفي المنتظم لأبن الجوزي الذي عدّه من أولاد المحدّثين والحُفاظ ، ذيل بكتابه هذا على كتاب تجارب الامم لمسكويه وهو من المعنيين بالتصنيف في التواريخ ، وله ذيل على كتاب الطبري ، نَقَلَ العماد الاصفهاني عن كتاب الذيل للهمداني هذا أكثر من مرّة .

٣ ـ كتب أبي المعالي سعد بن علي الحظيري الكتبي البغدادي المعروف بدلّال الكتب ، له رسائل ومصنفات غير قليلة ترجم له العماد في قسم شعراء العراق ، كما ترجم للحظيري عدد من المؤرخين ؛ منهم ياقوت في معجم البلدان ، وابن خلكان في الوفيات ، وابن الجوزي في المنتظم وغير هؤلاء . والكتابان اللذان ألفهما دلّال الكتب البغدادي المذكور هما كتاب « الألغاز » وكتاب « زينة الدهر » ذيل به على دمية القصر للباخرزي . والعماد يعنى بالنقل عن الكتاب الثاني أكثر من الأول .

٤ ـ انشادات مجد العرب العامري ، يروي العماد في هذا القسم من الخريدة كما يروي في قسم شعراء الشام ايضا ـ عن مجد العرب العامري الشاعر ، وهو الامير أبو فراس علي بن محمد بن غالب العامري ، من كبار شعراء المائة السادسة ، تحدث عنه العماد في أصفهان وفي الشام له ديوان ضخم وترجمة في الخريدة .

مآخذ في قسم
شعراء مصر والقيروان وصقلية والمغرب والاندلس

خص العماد الكاتب القسم الرابع من كتابه بشعراء مصر والقيروان وصقلية والمغرب والاندلس ، نشر ما يخص شعراء مصر منه في القاهرة في جزأين وقد استهله بذكر الشعراء المصريين وأعقبه بذكر الآخرين . وقال في تعليل تقديمه للمصريين في رسالة بعث بها الى القاضي الفاضل : « إنه عراقي المنشأ والمربى ، مصري المنحى والملجأ ، ناصري العلاء ، فاضلي الولاء » . ويلاحظ انه اثنى في مقدمة هذا القسم على مصر والمصريين ـ بمثل ما أثنى في مقدمة القسم العراقي على العراق والعراقيين ـ وذلك لكثرة إقامته بمصر ولما تقلده من المناصب الجليلة على عهد صلاح الدين الأيوبي ووزيره القاضي الفاضل فإنه كان ينوب عنه في ديوان الإنشاء قال العماد : « وأنا مبتدىء بالديار المصرية لامتزاجي بأهلها ، وابتهاجي بفضلها ، وحصول مداري في فلكها ، ودخولي إليها في خدمة سلطانها ، وخروجي منها بشكر احسانها ، نازلاً من الأجل الفاضل في ظل أفضاله » وقال بعد ذلك في الإشادة بالديار المصرية « ومصر مربع الفضلاء ، ومرتع النبلاء ، ومطلع البدور ، وموضع الصدور ، وأهلها أزكياء أذكياء لاسيما في هذا الزمان المذهب ، والوقت المهذب بدولة الملك الناصر ، ففي أيامه الزاهرة اشرقت الأرض بنور ربها ، وهبت الرياح من مهبها » .

هذا ما قاله في المقدمة ثم عرج مرة ثانية فيها على التنويه بالقاضي

الفاضل ووصفه بالفتوة والمروّة والبلاغة والدين ، وأورد بعد ذلك عدة قصائد مدح بها السلطان صلاح الدين في هذه المرحلة من مراحل حياته كما فعل في مقدمة قسم شعراء العراق الذي ضمنه نبذة من شعره في مدح الخلفاء العباسيين فكأنما اصبح شاعرا من شعراء الديوان في الدولة العباسية وبعد ذلك في كلتا الدولتين النورية والأيوبية . ويبدو لنا من التأمل في قصائده انه لم يكن في طبقة فحول الشعراء كان من أعلام الأدب المترسلين على كثرة تصنعه في رسائله والتزامه السجع والمحسنات اللفظية المملة .

قسيم العماد في تأليف الخريدة :

استهل العماد هذا القسم بترجمة القاضي الفاضل صاحب ديوان الرسائل على عهد الملك الناصر صلاح الدين . ولا نبالغ إذا قلنا إن القاضي الفاضل كان قسيم العماد في تأليف « الخريدة » وشريكه في ذلك ، زود العماد بأصول بحثه من الكتب النادرة ووافاه بمادة غزيرة من محفوظاته وأحاديثه وانتفع بعلمه وخبرته وتجاربه الكثيرة ، فإنه كان من أحفظ أهل عصره للشعر والأخبار ، والأنساب وكانت له خبرة واسعة بأحوال شعراء عصره مشارقة ومغاربة بل كان ديوانه أو مجلسه لا يخلو من جماعة من هؤلاء . . وما عدا ذلك فإنه أهدى للعماد كتباً نفيسة استعان بها على وضع كتاب الخريدة بجميع أقسامه كما تشهد بذلك ترجمة العماد لصاحبه القاضي الفاضل[1] وفي هذه الترجمة يقول العماد عن رئيسه المذكور : « أهدى إليّ تسع مجلدات من الكتب النفيسة تشتمل على أشعار أهل العصر المغربيين وآدابهم ، وهو يثني فيها على إعرابهم وإغرابهم » .

وللعماد رسالة بعث بها الى القاضي الفاضل يشكر له هديته من

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر (١/٤٤) .

الكتب المذكورة أورد فيها أسماء مصنفيها[١] . ومن هؤلاء المصنفين أبو الصلت أمية بن عبد العزيز القيرواني[٢] مصنف كتابه « الحديقة » الذي عول عليه العماد كثيرا في هذا القسم ، وقد عني فيه بترجمة جيدة لأبي الصلت المذكور ، يستفاد منها أنه من حكماء ذلك العصر وشعرائه ، أن العماد ظفر بنسخة من ديوان ابي الصلت وأن هذه النسخة كانت من جملة هدايا القاضي الفاضل له ، وللعماد مختارات من هذا الديوان تجدها في مكانها من كتاب الخريدة ، وأبو الصلت هو مؤلف الرسالة المصرية التي كتبها لصاحب القيروان أبي طاهر يحيى بن تميم بن المعز بن باديس أملاها عن ظهر خاطره في مدة ضيقة كما قال في آخر الرسالة ، وقد عني فيها أبو الصلت بوصف ديار مصر ونوه بجمال ربوعها نثراً وشعراً وتكلم بعد ذلك عن سكانها وأجناسهم ومذاهبهم وأخلاقهم وعقائدهم ثم عن آثارها وتاريخها ، وفي آخرها فصل عمن لقبه من الشعراء والأدباء[٣] .

أنموذج الزمان لابن رشيق

ومن جملة هدايا القاضي الفاضل للعماد بعض مصنفات ابن رشيق

(١) المصدر المذكور (١/٤٤ ـ ٥٢) .

(٢) في تاريخ وفاة أبي الصلت قولان أصحهما ـ وهو رأي القاضي ابن خلكان ورأي الرشيد بن الزبير الأسواني في كتاب « الجنان » ـ أنه توفي في سنة ٥٢٨ ، وقيل سنة ٥٤٦ وهذا التاريخ نقله العماد عن ظهر نسخة من كتاب (الحديقة) لأبي الصلت أهديت اليه من القاضي الفاضل ، وهناك ولا شك غلطة وقعت في هذا التاريخ ، قال ابن خلكان في آخر ترجمة أبي الصلت انه نزل المهدية سنة ست وخمسمائة ، وولد له بها ولد سماه عبد العزيز ، وكان شاعرا ماهراً له في الشطرنج يد ، وتوفي هذا الولد « ببجاية » سنة ست واربعين وخمسمائة ، قال ابن خلكان وهو الذي غلط فيه العماد الكاتب فيما نقله عن القاضي الفاضل فاعتقد أن أباه مات في هذا التاريخ . هذا ما قاله القاضي ابن خلكان في تخطئة العماد الكاتب ولا تخاله مصيباً لأن العماد نقل ما وجده على ظهر نسخة من كتاب الحديقة لأبي الصلت أهداها القاضي الفاضل له ثم أن العماد أشار بعد ذلك الى أصح الأقوال في تاريخ وفاة الأديب المذكور .

(٣) نشرت هذه الرسالة في القاهرة سنة (١٣٧٠ ـ ١٩٥١) .

القيرواني ولم يسم العماد هذه المصنفات ، ومن كتب ابن رشيق كتاب « العمدة » في صناعة الشعر ، وموضوعه يختلف عما نحن بصدده .

ومؤلفات ابن رشيق في الأدب غير قليلة ذكروا منها كتاباً سماه « أنموذج الزمان في شعراء القيروان » وابن رشيق يعالج في هذا الكتاب نفس الموضوع الذي يعالجه العماد الكاتب في الخريدة والكتاب معدود بين أنفس مؤلفاته ومآخذ من أحسن مآخذ المصنفين في بابه بيد أنه فقد فيما فقد من آثار هذا الأديب ، ولا توجد منه إلا نبذ متفرقة في كتب الأدباء المتأخرين وكثير منهم مصريون . وممن اقتبس منه ابن فضل الله العمري والصفدي وابن شاكر الكتبي والسيوطي وغيرهم . ويستفاد من ذلك أن الكتاب كان معروفاً متداولاً في مصر . ولا ريب ان خزائن كتب المغرب لم تكن خالية منه ، إذ ورد له ذكر في بعض مؤلفات ابن الأبار . ولعل العماد الكاتب كان يعني هذا الكتاب في رسالته المذكورة .

ويستفاد من رسالة العماد أن بين الكتب المذكورة كتاباً للقيسي يعني الفتح بن خاقان صاحب « القلائد » و« المطمح » وآخر لابن « خيران » وثالث « لابن أبي الشخباء » من رؤساء كتاب الدواوين المصرية في المائة الخامسة ، وكتاب لابن خفاجة الأندلسي الشاعر المشهور .

أدب المشرق وأدب المغرب :

هذا وفي آخر رسالة المؤلف التي بعث بها إلى رئيسه القاضي الفاضل بهذا الشأن فصل في معنى المقارنة بين أدب المشرق وأدب المغرب ، ومن رأيه أن الأول أصل والثاني فرع . وأن العراقيين الأولين هم المجلّون وغيرهم المصلّون ، وأراد العماد أن يشير الى رابطة مصر الطيبة بالعراق بعد انقراض الدولة الفاطمية فقال : « أما مصر فهي الآن عراقية الدولة عباسية الدعوة » إلى غير ذلك ، ولا ندري لماذا تنكر العماد الكاتب

في آخر هذه الرسالة للشام ولأدب الشاميين مستنداً إلى رأي ذهب إليه القاضي الفاضل في الشكوى من أهل الشام ، مع أن القسم المجرد في شعراء الشام من أضخم أقسام « الخريدة » ومع ان القاضي الفاضل في أصله من أهل بيسان في فلسطين . والغالب أن السلطان صلاح الدين ورجال دولته كانوا ناقمين على فريق من أهل الشام ، ومن الجائز فيما نرى أن تكون لهذه الشكوى من أهل الشام دون أهل العراق وأهل مصر صلة بثورة حلب على صلاح الدين الأيوبي والحرب التي دارت بينه وبينهم وكانت نتيجتها هزيمة عساكر حلب في ضواحي هذه المدينة في عاشر شوال سنة ٥٧١ ، وللشعراء ومنهم العماد الكاتب في ظفر السلطان المذكور قصائد كثيرة .

فهذه مآخذ مصرية وأصول مغربية رجع إليها العماد ، وهي من جملة هدايا القاضي الفاضل ، أهداها إليه من خزانته المشهورة في القاهرة . وخزانة القاضي الفاضل هذه عني بوصفها مؤرخو دولة صلاح الدين الأيوبي بعد استيلائه على مصر ومما قالوه : « إن القاضي الفاضل دخل إلى خزائن القصور الفاطمية واختار جملة من أحسن المصنفات فيها » ومن هذه الكتب الفاطمية النفيسة تكونت تلك الخزانة .

القاضي الفاضل وتراث الفاطميين :

كانت قصور الفاطميين تشتمل على ذخائر وجواهر وتحف لا توجد في قصور دول أخرى ، وقد تفرقت محتويات هذه القصور ووزعت وبيعت . قال بعض المؤرخين « قام البيع بالقصر مدة عشر سنين » وقال المقدسي في كتاب الروضتين : « من جملة ما باعوا خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا لأنه لم يكن في جميع بلاد الإسلام كتب أعظم من كتب الدار التي بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون

نسخة من تاريخ الطبري ، ويقال إنها كانت تحتوي على ألفي ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة شيء كثير ، وحصل للقاضي الفاضل قدر منها كبير ، حيث شغف بحبها ، وذلك أنه دخل إليها واعتبرها ؛ فكل كتاب يصلح له قطع جلده ورماه في بركة كانت هناك ، فلما فرغ الناس من شراء الكتب اشترى تلك الكتب التي 'لقاها في البركة على أنها مخرومات ، ثم جمعها بعد ذلك فحصل منها ما حصل من الكتب » قال مصنف كتاب « الروضتين » « كذا أخبرني جماعة من المصريين منهم الأمير شمس الخلافة موسى بن محمد فاقتسم الناس بعد ذلك دور القصر » قال العماد « وأخذت ذخائر القصر ومن جملتها الكتب ، فاني اخذت منها جملة في سنة اثنين وسبعين ، وكانت خزائنها مشتملة على قريب مائة وعشرين الف مجلد مؤبدة ، من العهد القديم مخلدة ، ومنها بالخطوط المنسوبة ما اختطفته الأيدي ، وكانت كالميراث مع أمناء الأيتام ونقلت ، منها ثمانية أحمال إلى الشام » .

بيع الكتب بمحضر العماد :

عقد المقدسي فصلاً عنوانه « في بيع الكتب وعمارة القلعة والمدرسة والبيمارستان » ، ناقلاً ما ورد بعد هذا العنوان عن العماد الكاتب الذي قال « كان لبيع الكتب في القصر كل اسبوع يومان ، وهي تباع بأرخص الأثمان ، وخزائنها في القصر مرتبة البيوت مقسمة الرفوف مفهرسة . فقيل للأمير بهاء الدين قراقوش متولي القصر ، هذه الكتب قد عاث فيها العث ولا غنى عن تهويتها ونفضها وإخراجها من بيوت الخزانة ، وهو تركي لا خبرة له بالكتب ولا دراية له بأسفار الأدب وكان مقصود دلّالي الكتب أن يوكسوها فأخرجت وهي أكثر من مائة الف وكان فيها من الكتب الكبار ، وتاريخ الأمصار ، ومصنفات الأخبار ما يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءاً مجلداً إذا فقد منها جزء لا يخلف أبداً فاختلطت وكان الدلّال يخرج عشرة عشرة ، من كل فن فتسام بالدون ، وتباع بالهون والدلّال

يعرف وقد شارك غيره في ابتياعها حتى إذا لفق كتاباً قد تقوّم عليه بعشرة باعه بعد ذلك لنفسه بمائة . قال ـ يعني العماد ـ فلما رأيت الأمر حضرت القصر واشتريت كما اشتروا ، ومريت الأطباء كما مروا واستكثرت من المتاع ، وحويت نفائس الأنواع ولما عرف السلطان ما ابتعته وكان بمئين أنعم علي بها وأبرأ ذمتي ثم وهب لي أيضا من خزانة القصر ما عينت من كتبها ، ودخلت عليه يوماً وبين يديه مجلدات كثيرة انتقيت له وهو ينظر في بعضها وكنت طلبت كتباً عينتها فقال وهل في هذه شيء منها . فقلت كلها وما أستغنى عنها فأخرجتها من عنده »[1] .

وقال ابن الأثير لما استولى صلاح الدين على القصر وأمواله وذ خائره اختار منه ما أراد ووهب أهله وأمراءه . وباع منه كثيراً وكان فيه من الجواهر والأعلاق النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك قد جُمع على طول السنين وممر الدهور ، وذكر بعد ذلك بعض هذه الذخائر إلى أن قال : ومن الكتب المنتخبة بالخطوط المنسوبة والخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلد[2] .

شعراء العصر الفاطمي والديوان الفاضلي :

ومن فصول هذا القسم من أقسام الخريدة فصل ذكر فيه : « شعراء الديوان الفاضلي » والمترسلين فيه من أهل مصر ، وكانت دار السلطان أو دواوين القاضي الفاضل تجمعه بهؤلاء الشعراء والمترسلين ، وذلك أول مقدمه إلى مصر سنة خمسمائة واثنتين وسبعين حيث يستنشدهم ويستكتبهم أشعارهم ورسائلهم في مجلس القاضي الفاضل . ويلاحظ أن جل هؤلاء الأعلام من أبناء العصر الفاطمي قبل العصر الأيوبي كإبن سناء الملك ، والخطيب بن مماتي ، وابنه الأسعد ، وابن رفاعة كاتب ناصر الدولة ،

(١) كتاب الروضتين للمقدسي ص ٢٦٨ بشيء من التلخيص .

(٢) المصدر المذكور (١٩٩ ، ٢٠٠) .

ونجم الدين ابن مصال إلى غير هؤلاء .

وحاول العماد الكاتب جهده ان يجرد خريدته من ذكر شعراء الدولة الفاطمية لا لسبب إلا لأنها « دولة الأدعياء » كما يسميهم ، وإذا اضطر إلى ترجمة واحد من هذه الطبقة قلل من إيراد شعره للسبب المذكور ، ولكن محاولات العماد هذه منيت بالفشل والفضيحة فإن فحول شعراء مصر ومترسليها في الدولة الأيوبية هم بقايا السيوف من عصر الدولة الفاطمية الزائلة ، ومنهم القاضي الفاضل نفسه في قول مشهور ، ولذلك نرى قسم شعراء مصر من الخريدة حافلاً بذكرهم .

ولا نبالغ إذا قلنا إنهم من خيرة ما اشتمل عليه كتابه المذكور ، ومن الأمثلة على ذلك ترجمة العماد لابن الضيف الشاعر .

والترجمة المذكورة ضرب من تملق العماد لفريق من رجال الدولة الأيوبية في القاهرة أكثر مما يجب . وابن الضيف هو حيدرة ابن عبد الظاهر بن الحسن بن علي الربعي .

قال العماد في ترجمته : « كان من دعاة الأدعياء الغلاة ، وكان في حدود سنة خمسمائة في عهد آمرهم ، وله فيه مدائح كثيرة وَقَع إلى ديوانه بخطه ، وكنت عازماً لفرط غلوه على حطه ، لكنني لم أر أن أترك كتابي منه صفراً ، لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ويقصده البر والفاجر » .

مطاعن العماد :

وقلما رأينا بين رؤساء الدواوين في الدولة الأيوبية من يعنى بالهجوم على الدولة الفاطمية والفاطميين ويندد بهم ويطعن في أحسابهم وأنسابهم كالعماد الكاتب وله رسائل في هذا الشأن ، وقد نقل جملة من أقواله المقدسي في كتاب « الروضتين » . ثم هب ان صلة العماد الكاتب كانت وثيقة بالبيت الأيوبي صلاح الدين وعمه أسد الدين « شيركوه » قبل أن يُملكوا ، وهب ان السلطان نور الدين محمود صاحب الشام نصب العماد متولياً على بعض مدارس دمشق سنة ٥٧٦ ، وهب ان العماد تقدم في هذه الدولة أكثر من ذلك واصبح من أكبر انصارها وأوليائها لأنه ربيب نعمتها ؛ فكان عليه ان يتجنب تلك اللهجة العنيفة والشدة المتناهية في مطاعنه بالفاطميين .

هذا ولا يخفى تضارب الآراء في الدولة الفاطمية منذ ظهرت إلى أن انحلت في أواخر المائة السادسة . وقد يختلف رأي المشارقة عن رأي المغاربة في هذا الشأن . ومن المفيد استعراض تلك الآراء في فصل خاص وذلك على الصورة الآتية :

نسب الفاطميين :

في صحة نسب الفاطميين أصحاب مصر والمغرب أو في انتحال هذا النسب أقوال متضاربة ـ كما لا يخفى ـ وليس ذلك فقط بل في سياق النسب نفسه وفي تسلسل رجاله روايات متعددة . وليس العماد الكاتب صاحب الخريدة بأول من طعن في هذا النسب فإن بعض المؤرخين زعموا أن علوياً مصرياً خبيراً بهذه الأنساب ناقش المعز معد بن المنصور لما دخل الديار المصرية في صحة نسبهم سنة ٣٦٢ وأن المعز انقطع ولم يجبه عن سؤاله . ولهذا السؤال والجواب حكاية أوردها القاضي ابن خلكان[١]

---

(١) الوفيات ١ : ٣٢٦ .

وأورد في آخرها ما يشكك في صحتها ، ولم يكن العماد الكاتب من أهل الخبرة في الأنساب حتى يبت فيها صحة أو انتحالاً ، وماذا نصنع بقول الشريف الرضي وهو أقدم طبقة من جد العماد الكاتب . وفي بيت الرضي نقابة العلويين .

ما مقامي على الهوان وعندي   صـــارم مِخـذم وأنف حمى
أحمل الذل في بلاد الأعادي   وبمصـر الخليفـة العلــوي

ومعنى هذا القول واضح وهو أن القوم لم يكونوا أدعياء كما يقول العماد .

دولة الفاطميين بين المشرق والمغرب

كان للفاطميين أو العبيديين ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يدعوهم ، أنصارهم وأولياؤهم في المشرق وفي الشام خاصة ، وذلك منذ قيام دولتهم في الديار المصرية ، وزوال شعار بني العباس منها وانقطاع الخطبة على منابرها للعباسيين .

تقول بنو العباس هل فتحت مصر فقل لبني العباس قد قضى الأمر

كان وجود هؤلاء الأنصار والأولياء في المشرق - وهم على اتصال دائم برجال الدولة الفاطمية في مصر - باعثاً على قلق الدولة الأيوبية الفتية في الشام ، وعلى توجس الخلافة العباسية في العراق ، وما كان للقوم أن يطمئنوا إلا بزوال الدولة المصرية المذكورة . وكانت مصر من حيث موقعها البلداني واسطة العقد بين المشرق والمغرب في ذلك الحين ، ومعنى هذا أن للدولة التي تسيطر على مصر أثراً فيما يجاورها من الدول . لذلك اتصل السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بعد غلبته على الفاطميين بدولتين من هاتيك الدول التي تأثرت بأحداث مصر في تلك الأيام إحداهما مشرقية وهي الدولة العباسية ، والأخرى مغربية وهي دولة الموحدين .

أعياد بغداد :

وفي بغداد احتفل ديوان الخلافة بزوال دولة الفواطم كما لو كان عيداً من أكبر الأعياد ، وذلك على خلاف ما قوبل به هذا الحادث في المغرب على عهد الموحدين . ولاحت مظاهر الابتهاج في دار السلام وتلقى المرتضى خليفة بغداد رسائل التهاني من جهات شتى في طليعتها رسالة السلطان المجاهد نور الدين محمود صاحب الشام وأخرى من الملك الناصر صلاح الدين يعلمانه بانحلال دولة الفواطم وزوال شعارها من الديار

المصرية وعودة شعار العباسيين في الخطبة والسكة ، وتوالت الرسل بالبشائر ، والوفود بالخلع والهدايا بين بغداد والقاهرة .

وكانت الخلع العباسية تتألف من خيول وأعلام وبنود ورايات سود وأهب عباسية أخرى أقيمت بمناسبة وصولها تظاهرات موعز بها من السلطان في دمشق والقاهرة . أما هدايا صلاح الدين الى بغداد فكانت مختارة من أسلاب القصور الفاطمية .

ضعف الدولة العباسية :

هذا وكان صلاح الدين ولا شك خبيراً بشؤون الدولة العباسية مطلعاً على مبلغ هزالها وضعفها في العصر المذكور . بيد أنه يقصد من الاتصال بها استمالة ديوان الخلافة لدعم سلطانه وتأييد دولته في مآتيها وأعمالها وخصوصاً نكايتها بالدولة الفاطمية . ولا يخفى أن الدولة العباسية لم يبق لها في ذلك العصر إلا هذا الضرب من السلطان الروحي المجرد حتى قال أبو ريحان البيروني إن بعض سلاطين المشرق رفضوا ألقاب التشريف التي أرسلت لهم من قبل ديوان الخلافة ، وكان كل من نور الدين محمود صاحب الشام والجزيرة وصلاح الدين يوسف بن أيوب ورجال الدولتين الاتابكية والصلاحية أدرى من غيرهم بحال دار الخلافة من هذه الناحية خصوصا وهم الذين استغاثوا بالعباسيين أكثر من مرة واستنجدوا بهم في كفاحهم الطويل المرير مع الصليبيين والروم فلم يغاثوا بغير البكاء والعويل والابتهال والدعاء . ومع ذلك يلاحظ أن صلاح الدين عني كثيراً بأن يتصل بدار الخلافة قبل استيلائه على مصر وبعد ذلك ، عني بموافاة خلفاء بغداد باخبار الحروب الطاحنة التي دارت بينه وبين الإفرنج أو الصليبيين في فلسطين والشام وكان يزف البشائر إلى بغداد بالوقائع الكبرى التي ظفر بها في تلك الحروب وذلك في رسائل بليغة مشهورة معظمها من ترسل وزيره القاضي الفاضل وبعضها من إنشاء

العماد الكاتب صاحب كتاب الخريدة . ومن أشهرها وأبلغها رسالة في فتح بيت المقدس واسترداده من الصليبيين[1] .

وعلى كل حال عقدت في بغداد مجالس التهاني ، واحتفل الديوان ، وأنشد الشعراء بمجرد وصول الأخبار بظهور شعار العباسيين وزوال شعار الفاطميين في مصر ووصول الهدايا الكثيرة التي اختيرت من أسلاب المصريين في تلك القصور ، ومن أشهر القصائد التي أنشدت قصيدة سبط ابن التعاويذي وأولها :

قل للسحاب إذا مَرَته يدُ الجنائب فارجحنْ

ومنها يخاطب المستضيء :

دانت لهيبتك الممالكُ والمعاقلُ والمدنْ
وأتتك أسلاب الملوك من الصعيد إلى عدن
سَلَبُ الدعي بأرض مصرٍ والمضلّل في اليمن
مما اقتناه ذويَزَن في القديم . وذيزين
فكأن دعوتهم على تلك المنابر لم تكن

أثر النوبة المصرية في بلاد المغرب :

يتطلب كشف النقاب عن الأثر الذي تركه انحلال دولة الفاطميين في بلاد المغرب مزيداً من البحث والتحقيق . فإن كتب التاريخ لم تتناول هذا الموضوع مع أن الشقة لم تكن بعيدة بين حدود الدولتين في ذلك الحين بيد أن الكتب التي عني مصنفوها بتاريخ تلك الفترة خلت عن الإشارة الى اتصال الملك الناصر صلاح الدين بالمغاربة كما اتصل قبل ذلك بالمشارقة إلا بعد زمن طويل . ومن رأينا أن صلاح الدين كان على يقين من انزعاج

(١) تجد هذه الرسائل في كتاب الروضتين لابن أبي شامة .

الموحدين وعلى رأسهم السلطان يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن لاستيلاء بني أيوب على مصر بعد إطاحتهم بالدولة الفاطمية أضف الى ذلك انصراف كل من الدولتين إلى توطيد دعائم الأمن في الداخل فإن لدولة المرابطين التي أطاح بها الموحدون أنصارها في المغرب وما يقال عن وجود أنصار للمرابطين في مراكش ، يقال عن وجود أولياء للفاطميين يحدثون أنفسهم بعودتهم إلى الحكم في مصر ، ومما يدل على ذلك أن خَلْقا من المصريين انضموا إلى ثائر يدعى « الكنز » ثار في أسوان سنة ٥٧٠ زاعماً أنه يعيد الدولة المصرية بيد أن صلاح الدين تمكن بأقصر وقت من قمع هذه الثورة .

بين يعقوب المنصور وصلاح الدين الناصر :

بدأ الاتصال بين صلاح الدين الأيوبي والموحدين في أيام الملك يعقوب الملقب بالمنصور حفيد عبد المؤمن بن علي ، وهو بطل واقعة « الأَرَك » في الأندلس ثانية واقعة « الزلاّقة » التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين ملك المرابطين واسترد إشبيلية وغيرها من الأسبانيين قبل ذلك ، وهذا الملك الموحدي المنصور هو الذي أسس مدينة « الرباط » المعروفة الآن في المغرب وكانت تسمى في عصره « رباط الفتح » تيمناً بانتصاره على الأسبانيين في تلك الواقعة . وهذه المدينة الجميلة واقعة على شاطىء المحيط الكبير من جهة الغرب وعلى ضفة نهر « أبو رقراق » من جهة الشرق . وهذا النهر يفصل بينها وبين مدينة « سلا » من أقدم حواضر المغرب وفيها ـ أي في سلا ـ مدارس ومعاهد علمية قامت بإنشائها دول المغرب في القديم ونهر « أبو رقراق » هذا يصب في المحيط بيد أن ماءه ملح غير شروب كما رأيناه أكثر من مرة برحلتنا أخيراً إلى تلك البلاد .

وفي أيام ملك الموحدين المذكور يعقوب المنصور اتفقت محنة الفيلسوف « ابن رشد » إذ رفع إلى الملك أنه ينصر أو يرجح الفلسفة على الدين ، والحقيقة غير ذلك لأن ابن رشد أكثر من التأليف في معنى التوفيق

بين الشريعة والحكمة ، ومن أحسن كتبه وأمتعها في ذلك كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » وله عدا ذلك كتب ضخمة في الفقه والشريعة تدل على تبحره في علوم الملّة الإسلامية بيد أنه مني بكثرة الحساد والخصوم . وبعضهم من أرباب المناصب في القضاء . وكان منصب القضاء في الدولة الأندلسية من أجل مناصب الدولة ولمن يتقلده منزلة خطيرة . ومجمل القول لم يسع السلطان إلا إخراج ابن رشد إلى المغرب في قصة معروفة . ويقال إن الملك يعقوب لما عاد الى المغرب اتضح له بطلان ما نسب إلى ابن رشد فأكرمه وأدناه . ولهذا البحث تتمة تجدها في بعض الفصول الآتية .

يعقوب المنصور في كتب المؤرخين :

اثنى المؤرخون المصريون والمغاربة على ملك الأندلس والمغرب هذا وحمدوا سيرته قائلين كان عادلاً غازياً مظهراً للشريعة يشهد الصلاة مع عامة الناس ويقف للضعيف وينظر في المظالم وأرخوا وفاته بسنة ٥٩٥ . وفي كيفية وفاته روايات غريبة منها أنه اختفى في التاريخ المذكور فلم يعرف له أثر . وقيل تزهد وساح في الأرض ، وقيل وصل في سياحته إلى الشام متنكراً ومات في سهل البقاع . ويتحدث ابن خلكان[١] عن مشهد معروف في السهل المذكور يقال له « قبر يعقوب ملك المغرب » هذا إلى روايات أخرى ينكرها العقل السليم ، بيد أنها تدل على تعلق أهل المغرب بهذا السلطان وحبهم الشديد له وحسن ظنهم فيه . فلا عجب إذا عض المغاربة على دينهم بالنواجذ ، ولا غرابة إذا خابت مساعي الدول الغربية في صرفهم عن عقيدتهم بالقوة حتى اليوم .

سفراء الدولة الايوبية :

يبدو لنا من تضاعيف أخبار صلاح الدين بن أيوب في كتب التاريخ أنه كان معنياً بشؤون المغرب والأندلس وتسقط أخبار المغاربة والأنا

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٣١ - ٤٣٢ .

في عصره ، والبحث عن أحوال دولهم وملوكهم حتى رغب إلى طبقة من الكتاب والمؤرخين بالتصنيف في أخبار تلك البلاد . فصنف له محمد بن أيوب الأنصاري كتاباً في أحوال « المعتصم ابن صمادح » صاحب « المريّة » و« الصمادحيّة » وصنف له آخر كتابا في شعراء المغرب والأندلس. وكان يرسم لسفرائه الى تلك البلاد خططا دقيقة يطلب اليهم بموجبها ما يطلب الى سفراء الدول هذا اليوم من استقراء أحوال البلاد سياسياً واقتصادياً واجتماعياً والتعرف على أوضاع اهلها وعاداتهم وأخلاقهم ومختلف نواحي حياتهم يدل على ذلك ما جاء في إحدى وصاياه لسفير له وهذا نصه « يستقري في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم ، وما يحبون في القول نزره أو جمعه ، واللقاء منبسطه أو منقبضه ، ومن القعود بمجالسهم مخففه او مطوله ومن التحيات المتهاداة فيما بينهم ما صفته وما موقعه . أهي السنن الدينية . أو العوائد الملوكية »[1] وقد علمنا فيما سبق أن صلاح اتصل بالمغرب والأندلس في أيام الملك يعقوب الذي تقدم ذكره وذلك بعد مضي زمن غير قليل على استقراره في مصر . ويستفاد من بعض رسائله أو وصاياه إلى سفرائه أنه كان على علم بانزعاج الموحدين من قيام دولة غير الدولة الفاطمية بمصر ، وقد كثر التساؤل في المغرب عن سبب الإطاحة بتلك الدولة وظهور شعار العباسيين من جديد في مصر . واحتج صلاح الدين في رسالة بعث بها إلى سفيره بأن الفاطميين المعاصرين له راسلوا الكفار وأطمعوهم في تسليم الديار المصرية . وأما الجيش الفاطمي فإنه اقتصر على حله وتسريحه وعقوبة بعض القادة ورجال الدولة ـ هذا ما جاء في رسالة صلاح الدين إلى سفيره . وأمر أن يبلغ ما ورد فيها من هذا القبيل إلى الملك يعقوب المنصور[2] ومما تضمنته الرسالة رجاء مؤكد بطلب النجدة أي نجدة كانت سلاحاً أو رجالاً أو مالاً أو إشغالا للعدو

---

(١) جاءت هذه الوصية في رسالة الى سفير له أرسله الى المغرب وتجد نصها في كتاب الروضتين للمقدسي ٢ : ١٧٠ .

(٢) تجد نص الرسالة في كتاب الروضتين ٢ : ١٧٠ ـ ١٧٢ .

من الفرنجة والحيلولة بينهم وبين امداد بقية السيوف منهم في سواحل الشام أو في بحر الروم . أما أعيان الهدايا المرسلة الى يعقوب المنصور فهي ختمة كريمة في ربعة مخيشة بمسك ثلاثمائة مثقال عنبر . ثلاث قلائد ستماية حبة . عود في سفط عشرة أمنان . دهن بَلَسان . قسى بأوتارها . مائة قوس وقوسان . سروج عشرون ، نصول سيوف هندية عشرون . نشاب خاص مريّش كبير ومتوسط ، سهام ضمن صندوق خشب مجلد . سبعمائة سهم[1] وقد أدى الرسول رسالته على أحسن وجه وان لم يحالفه التوفيق من ناحية الحصول على النجدة . ومما تدل على ذلك مذكرة حسنة كتبها رسول صلاح الدين إلى الديوان في القاهرة .

تجهم رسل الايوبيين في المغرب :

تجهّم المغاربة رسل بني أيوب : وكان هذا متوقعا بل كان الناصر صلاح الدين عليماً بأسبابه . وقلما شاركه في هذا العلم غيره من رجال الدولة . وكان قد اختار رسوله إلى المغرب أميراً من بني منقذ الكنانيين اسمه عبد الرحمن ويكنى أبا الحزم وهو شاعر وأديب وقائد محنك توافرت فيه مؤهلات السفارة كما تدل عليه الرسالة التي حملها الى ملك الموحدين حيث أثنى عليه صلاح الدين ووصفه بالأدب والبلاغة وأنه « من البيان ذو ذخيرة ومن العرب في بيت وعشيرة » وهذه الرسالة حفز لها حافزان « شوق قديم وأمر عظيم » ويعني صلاح الدين بالأمر العظيم حاجته الملحة الى النجدة والحيلولة دون وصول الامدادات من البحر الى الصليبيين . وكان للموحدين أسطول ضخم يخوضون به عباب بحر الروم وعباب المحيط الكبير . وقد عبروا به إلى الأندلس أكثر من مرة .

هذا ولم يكن الرسول ابن منقذ وحيداً في سفارته أو ترسله عن صلاح الدين من بين أسرته فقد لاحظنا بين أمراء الدولة الأيوبية جماعة من بني منقذ أصحاب قلعة « شيزر » التي ملكوها من الروم . وممن اشتهر

---

(١) المصدر المذكور ١٧٣ .

منهم في هذه الفترة « المبارك كامل بن علي » وابنه « حطّان » ولهما أخبار في العصر المذكور من عصور الدولة الأيوبية أوردها المؤرخون[1] .

قوبل رسل صلاح الدين إلى المغرب بفتور من جانب ملك الموحدين . وعلل المؤرخون ذلك بأنه خوطب في الرسالة بأمير المسلمين مع أنه يلقب في بلاده « أمير المؤمنين » واكتفى المؤرخون بذلك في تعليل سخط الموحدين . وهو فيما نرى تعليل غير واف بالمرام . ولا يفسر لنا ذلك الغضب والتجهم الشديد . وعلى كل حال لم يجد احتجاج رجال الدولة الأيوبية بأن هذه عادتهم وعادة سلفهم في مخاطبة ملوك المغرب حتى ان يوسف بن تاشفين ملك المرابطين وغيره لم يعترضوا على مخاطبتهم بذلك . وأنشأ القاضي الفاضل في هذا المعنى رسالة قال فيها إن الأخذ برأي الموحدين يؤدي الى خلع بيعة ـ وهو يعني بيعة العباسيين ـ والدخول في بيعة أخرى غير شرعية . وأنكر إصرار المغاربة على وجهة نظرهم في ذلك[2] وهذا يعني ان البون شاسع ، وأن الشقة بعيدة بين الفريقين لأن الموحدين لا يرون بيعة بني العباس مشروعة . ومن رأيهم أن تجديد دعوتهم واظهار شعارهم في مصر أمر غير مرغوب فيه . فإن دار الخلافة اليوم في مراكش لا في بغداد على ما يرون . هذا ولا يخفى أن الأيوبيين استندوا في اطاحتهم بالدولة الفاطمية الى تهم خطيرة وردت في رسالة صلاح الدين الى سفيره . وفي جملتها مراسلة الكفار ـ يعني الصليبيين ـ للاستيلاء على بلاد المسلمين : وليس من اليسير البت في تلك التهم إلا بوثائق قاطعة ، وهو ما خلت عنه كتب التاريخ . والظاهر أن ملك الموحدين لم يأخذ بما ألصق من هذا القبيل بالفاطميين . فهو لا يأخذ بالأقوال المجردة التي لا تقترن بأدلة قاطعة أو لا تدعم بوثائق وبراهين ، وإذا كان الفاطميون تآمروا مع أهل الصليب فكيف امر صلاح الدين بإقامة مجلس للعزاء في القاهرة بوفاة العاضد آخر هؤلاء الفاطميين .

(١) أنظر ترجمة المبارك ابن منقذ ، مشد الدواوين في الدولة الأيوبية بمصر ـ وفيات الأعيان ٢ : ٥٥٨ .

(٢) كتاب الروضتين للمقدسي ٢ : ١٧٤ ـ ١٧٩ .

وبجمل القول يمكن رد هذا الخلاف الشديد الناجم بين الأيوبيين والموحدين في هذه الفترة الى وجوه . فهو من جهة خلاف مذهبي مرده الى البيعة وما يترتب عليها من احكام وألقاب وما إلى ذلك ، وهو من جهة ثانية خلاف يتصل بالمنشأ والمنبت والموطن فالموحدون والفاطميين مغاربة في الأصل لا شك في ذلك والأيوبيون الضالعون مع العباسيين ليسوا كذلك . وهذا يعني ان الدولة التي زالت في مصر كانت في أصلها دولة مغربية دعاتها مغاربة وقادتها وجنودها وفقهاءها وشعراءها مغاربة كذلك . وقد قامت اول ما قامت في المغرب . وهناك بالإضافة الى ما تقدم قدر آخر يجمع بين الموحدين والفاطميين في أنسابهم وفي آراءهم وعقائدهم في الفروع والاصول فلا غرو إذا ما شق انحلال الدولة الفاطمية بالشكل الذي انحلت به على السلطان يعقوب المنصور صاحب المغرب وملك الموحدين .

عودة إلى مآخذ العماد في الخريدة :

الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة :

لعلي ابن جعفر المعروف[1] بابن القطاع الصقلي الأندلسي ، وهو من الأصول التي عول عليها العماد في هذا القسم من كتابه ، ومن مصنفات ابن القطاع في الأدب كتاب سماه « لمح الملح » ، ومن أحسن

(١) له ترجمة حسنة في الوفيات (٣٣٩/١) أورد له نسباً طويلا متصلا ببني الأغلب حكام افريقية وجزيرة صقلية ، على أن ابن خلكان نقل بعد ذلك نسباً له أقصر منه قال : نقلته من خطه وعده من أئمة الأدب واللغة واثنى على مؤلفاته ، ونسبه الى بلدة شنترين في الأندلس ثم الى صقلية ، وذكر من مؤلفاته الدرة الخطيرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة « ولمح الملح » جمع فيه خلقاً من شعراء الأندلس ، ولد في صقلية سنة ٤٣٣ ، ورحل عنها لما اشرف على تملكها الإفرنج ووصل الى مصر سنة ٥٠٠ وبالغ أهلها في إكرامه ، وفي ترجمته التي أوردها السيوطي في « البغية » والقفطي في « أنباء الرواة » نبذة عن سبب نسبة التساهل اليه في الرواية .

مؤلفاته كتاب « الأفعال » سكن ابن القطاع مصر وفيها مات سنة ٥١٥ ، له ترجمة في الخريدة .

أبكار الأفكار :

كتاب أبكار الأفكار من أمتع مؤلفات ابي عبدالله محمد شرف القيرواني أحد فحول شعراء المغرب والأندلس بعد ذلك وأعلام الأدب فيهما والكتاب عبارة عن مختارات ابن شرف في المنظوم والمنثور . وهو من أندر الكتب وكنا نظن أنه من جملة ما ضاع من تراثنا القديم على أننا اطلعنا في رحلتنا الى المغرب الأقصى التي اتفقت في الخريف الماضي على وجود نسخة مخطوطة من هذا الكتاب في خزانة كتب الرباط العامة . وهذا الكتاب من مآخذ علماء الأدب المتأخرين عن طبقة ابن شرف ، ومنهم العماد الكاتب في الخريدة .

ورد ذكر الكتاب في ترجمة ابي الفضل جعفر بن أبي عبدالله محمد بن شرف القيرواني ، وفي هذه الترجمة يقول العماد « هو ولد أبي عبدالله محمد مصنف كتاب أبكار الأفكار توفي سنة ٥٣٠ وقد بلغ خمسا وتسعين سنة » والعماد على ما يستفاد من هذه الترجمة يروى عنه كتاب العمدة لابن رشيق .

هذا ويعد ابن شرف مصنف كتاب أبكار الأفكار من ائمة الأدب ويقرن بابن رشيق القيرواني معاصره وبينهما مناظرات ومهاجاة معروفة ، وقد ترجم ابن خاقان لابن شرف الوالد ترجمة أثنى فيها ثناءاً بالغاً عليه ، ونقل العماد في خريدته جانباً من تلك الترجمة وطائفة غير قليلة من قصائده . وأوسع ترجمة وجدناها لهذا الأديب ترجمة ابن بسام له في الذخيرة بيد أن العماد الكاتب لم يقف على هذا الكتاب فيما وقف عليه من مصنفات الأندلسيين والمغاربة في القاهرة ومعنى هذا ان كتاب الذخيرة لم

يخرج من الأندلس الى مصر حتى ذلك الحين ، هذا وقد تحدث ابن بسام بأحاديث شائقة جرت لابن شرف مع المأمون ابن ذي النون أيام خدمته إياه ، ويلاحظ أن ترجمة محمد بن شرف هذا من كتاب الوافي بالوفيات للصفدي تضمنت طرائف من اخباره لم نجدها في كتاب آخر . ومن ذلك ان « شرف » الوارد في نسبه اسم علم لامرأة في أحد الأقوال ، هذا ولم نجد في المآخذ التي عنيت بالترجمة لأبن شرف ما يدل على أنه قدم الى مصر أو زارها فإنه بعد خراب بلدة القيروان في منتصف المائة الخامسة ذهب الى صقلية ومن صقلية خرج إلى الأندلس وفيها أقام إلى أن مات .

مجموع ابن الصيرفي :

مجموع ابن الصيرفي هذا عول العماد عليه أكثر من مرة وهو من مآخذه المصرية ، وعلي بن سليمان المعروف بابن الصيرفي[1] من أعلام مصر في الأدب والبلاغة والشعر في عصر الصالح طلايع بن رزيك بعد سنة ٥٥٠ ، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء ، ومن مؤلفاته « قانون ديوان الرسائل »[2] . وكتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ذكر في هذا الكتاب جماعة من أعلام المغاربة[3] . ويلاحظ ان هذا المجموع لم ينشر فيما نشر من كتب الأديب المذكور .

كتاب الجنان ورياض الاذهان :

هذا الكتاب من أجل مصادر العماد في هذا القسم ، كما أنه من مآخذ كثير من المصنفين في طبقات شعراء المائتين الخامسة والسادسة ، وهو

---

(١) ترجم له ياقوت في معجم الأدباء ، وذكر ابن الصيرفي في عيون الأنباء لأبن ابي اصيبعة (٢/٣٦١) وخزانة الأدب للبغدادي (١/١١٩) ووفيات الأعيان (١/١٣٩ ، ١٩٩ ، ٢٣٣) و(٢/٣٣٠ ، ٤٤١) ط بولاق .

(٢) ألفه للوزير أبي القاسم المعروف بالأفضل بن أمير الجيوش طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٠٥ .

(٣) نشره المعهد العلمي الفرنسي في القاهرة سنة ١٩٢٤ .

من أجود ما ألفه المصريون في هذا الباب ولكن الكتاب مفقود ، قالوا ذيل به على اليتيمة ، ومؤلفه الرشيد بن احمد بن علي بن الزبير ، من بيت علم وأدب مشهور في مصر وأسوان ، أسند اليه منصب القضاء وولى النظر بثغر الأسكندرية والدواوين السلطانية في سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وأرسل الى اليمن في بعض المهام الديوانية ، وكانت له خبرة بشؤون الدولة ويعد من أهل النباهة والرياسة . ترجم للرشيد ابن الزبير جملة من المؤرخين واثنوا عليه ثناء بالغا ، وقالوا : كان أوحد اهل عصره في الرياضيات مع تضلعه في الشرعيات والشعر والأدب ، وممن ذكره وروى طرفا من شعره الحافظ السلفي في معجمه ، وهو شيخه ، وقال ابن شاكر في مشيخته : « كان الرشيد عالي الهمة عزيز النفس يترفع على الملوك ويرقى بنفسه عنهم ، ترجم له العماد في الخريدة وفي كتاب « السيل والذيل » الذي ذيل به عليها ، وذكر من كتبه كتاب « الجنان » وقال « طالعت منه جزءاً ، وفي الخريدة ايضا ترجمة لولده علي بن أحمد بن الزبير قال العماد : رأيته في الحضرة السلطانية بالقاهرة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة وقد وقف ينشد الملك الناصر قصيدة ، وذكر العماد بعد ذلك كلمة تدل على شيء من الحسد له ، وحاول ان يهمل قصيدته ثم قال : لكونه ولد ذلك الكبير اوردت من القصيدة أبياتا تناسب عبق العبير مطلعها :

شيدت بالبيض والعسالة الذبل مجداً أناف على النسرين والحمل

منها :

خدمتكم ليكون الدهر من خدمي فما تحول عن حالاته الأول
إن لم تكن بكم حالي مبدلة فما انتفاعي بعلم « الحال والبدل »

قتل الرشيد بن الزبير في المحرم سنة ثلاث وستين وخمسمائة ، وقال بعض المؤرخين قتل لأنه كان يحدث نفسه بالخلافة ، أو يسعى إليها ، أو يدعي ذلك ، وجاء في كتاب « الطالع السعيد » للأدفوي « نسب إليه :

أنه شارك « شيركوه » في قصده فكان سبب قتله » وقال الأدفوي أيضا « وقفت على محضر كُتبَ باليمن فيه خط جماعة كبيرة انه لم يدّع الخلافة ، وأنه مواظب على الدعوة للخليفة ، رأيت المحضر باسوان » . وكان من محاسن الزمان ، وللرشيد ابن الزبير اخ يلقب « المهذب بن الزبير» قال العماد : هو اشعر من اخيه ولكن الرشيد اغزر منه علماً ، توفي قبله بسنة ، لم يكن في زمنه أشعر منه ، ذكر له قصيدة في الصالح بن رزيك ، وجاء في آخر هذه الترجمة : « استعرت من الأمير عز الدين حسام جزءاً فيه قصيدته بخط المهذب بن الزبير ، مدح بها الصالح بن رزيك سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، ويصف اسطوله ونصرته في البحر على الروم ، وفي هذه القصيدة يحثه على قصد الفرنج في الشام ، ومنها قطعة في وصف الزلزلة » ويلاحظ أن العماد اكثر من ايراد شعر المهذب ابن الزبير المذكور ، وهو لا يخلو من جودة . ومن شعره على ما ذكره العماد ، ما أورده أخوه في كتاب الجنان[١] .

مجموعة أسامة بن منقذ أو تتمة كتاب الجنان :

ومما يدل على أن كتاب الجنان المذكور من الكتب الممتعة قول القاضي ابن خلكان في ترجمته لأسامه بن منقذ[٢] « وجدت جزءاً كتبه ـ يعني أسامة ـ بخطه للرشيد بن الزبير حتى يلحقه بكتاب الجنان وكتب عليه

(١) من الطريف جدا ان كتاب الجنان المذكور صحف في النسخة المطبوعة من « الوفيات » بكتاب الحسان إذ جاء فيها : وجدت في كتاب الحسان تأليف القاضي ابن الزبير ويستفاد من ذلك أن ابن خلكان وقف على هذا الكتاب ، وما أكثر التصحيف والتحريف في أمثال هذه المطبوعات ، ويكثر ذلك في كتاب الوفيات ، قال ابن خلكان في ترجمة « يحي بن تميم » : « ولما هلك رجار ملك صقلية ملك بعده ابنه غنيم » والصحيح غليوم بن رجار ، وفي بعض النسخ غليم ، ويكتبها عرب صقلية أو يلفظونها غليم ، من ذلك يتضح ان ما نشر من تراثنا القديم في بعض المطابع العربية نشر بدون دراسة وتحقيق .

(٢) الوفيات ١ : ٧٨ .

انه كتبه بمصر سنة ٥٤١ » وَوَرَدَ في آخر الترجمة المذكورة كلمة للعماد الكاتب يستفاد منها انه اجتمع بأسامة بن منقذ مؤلف الجزء المذكور بمصر سنة ٥٧١ فلا شك إذن في اطلاع العماد على كتابه وتعويله عليه . وقد عني أسامة بن منقذ بتراجم شعراء عصره مصريين وغير مصريين واستدرك ما فات الرشيد بن الزبير من ذلك وفي هذا الكتاب على الغالب تراجم لاعلام من بني منقذ إسرة المؤلف قال القاضي ابن خلكان[1] في ترجمته لعلي بن مقلد الكناني الملقب سديد الملك من بني منقذ بعد ان اورد حكاية تدل على فطنته « ساق هذه الحكاية اسامة في مجموعة إلى الرشيد بن الزبير في ترجمة ابن النحاس » ومن هذا يستفاد ايضاً ان القاضي ابن خلكان اقتنى نسخة من هذا الكتاب فهو من مآخذه كما كان من مآخذ العماد الكاتب قبل ذلك فأين ذهبت هذه الأصول النفيسة . إننا نهيب بالباحثين من أبناء مصر أن ينقبوا عنها في بقايا تراثهم القديم من المخطوطات .

كتاب المختار لابن بشرون المهدوي :

هذا الكتاب من أجل مصادر العماد في قسم شعراء مصر ، عقد فصلا من فصول الخريدة عنوانه « عدة من شعراءالعصر بمصر » ، أوردهم ابن بشرون المهدوي ، وهو عثمان بن عبد الرحيم بن عبد الرزاق بن جعفر بن بشرون بن شبيب الازدي المهدوي في كتابه الموسوم « بالمختار من النظم والنثر لأفاضل أهل العصر » قال العماد : وقد صنف هذا الكتاب في عصرنا سنة إحدى وستين وخمسمائة ولا بد من القول إن ابن بشرون لم يقتصر على شعراء مصر بل عني بذكر غيرهم من شعراء الأندلس والمغرب والقيروان وصقلية .

دواوين شعراء القيروان :

من مآخذ العماد في هذا القسم من كتابه دواوين شعراء القيروان ،

(١) الوفيات ١ : ٤٦٤ .

وما اكثرهم خصوصا بعد ان ازدهرت حضارة القيروان وإفريقية في عصر بني باديس ، ومن تلك الدواوين ديوان الملك تميم بن المعز بن باديس صاحب « المهدية » أعاره إياه أحد حفدته بدمشق سنة ٥٧١ ، أورد منه نبذة في ترجمة صاحب الديوان ، وكانت للأدب دولة معروفة في عصر آل باديس . ومنهم تميم وأولاده وأحفاده في إفريقية والقيروان ، ومن هذه الدواوين ديوان أمية بن أبي الصلت الشاعر الحكيم ـ وقد تقدم ذكره ـ هذا الى دواوين شعرية غير قليلة لأصحابها من شعراء القيروان وإفريقية وصقلية .

الشريف الادريسي :

ومن مآخذه في هذا القسم ما رواه عن الشريف الادريسي ، ولم يعرفه بأكثر من هذا ، ولكنه قال : هو الذي افادنا عمن أوردناه من الشعراء وذكرناهم من الفضلاء ، يعني في هذا الباب من أبواب كتابه ، وهو باب شعراء المغرب الادنى والقيروان وإفريقية . ويُعد الشريف الادريسي المذكور من أعلام المغاربة . يروي ابن بشرون عنه في كتابه الرسوم ، « المختار » شعر شعراء الأندلس وصقلية . وهو ـ أي كتاب ابن بشرون ـ من أجل مآخذ العماد ولا عجب إذا أكثر ابن بشرون من التحدث عن الشريف الإدريسي ، فإنه أندلسي من قرطبة وهو من المجودين في التأليف ، ألف في البلدان والأدب والنبات ، وكتابه « نزهة المشتاق » من أجود ما أُلف في موضوعه . ومعظم ما يذكره ابن بشرون في مختاره عن الأندلسيين يرويه عنه فإنه لقيه في صقلية .

تلخيص كتاب القلائد :

يستفاد من أقوال العماد في الفتح بن خاقان وكتابه « القلائد » أنه ظفر به بعد الفراغ من تأليف هذا القسم من الخريدة ـ أعني قسم شعراء مصر والمغرب والأندلس وصقلية ـ فإنه ختم الجزء الأول منه بفصلين

طريفين ، عني في الفصل الأول منهما بتهذيب كتاب « قلائد العقيان » واختار العماد لمهذبه هذه العبارة : « باب في ذكر محاسن شعراء « قلائد العقيان » واستهل هذا الفصل بقوله : طالعت كتاب « قلائد العقيان في محاسن الأعيان بعد إيراد الذين ذكرتهم من الشعراء فوجدته مشتملاً على ذكر طائفة من أهل هذا العصر شذوا عن الإثبات وقد بذوا الغايات فأوردتهم في هذا المجموع » وتلى ذلك فقرات مسجوعة أشار فيها العماد الى عنايته بتهذيب الكتاب . وأنه لم يتقيد بأقوال مؤلفه فيه فمن سبق له ذكر وعَثَرَ لَهُ على شيء جديد إضافة إليه ، ومن فاتته ترجمته وايراد شعره اورده فيه ، ولخص العماد عمله هذا بقوله : « فالحكاية له واللفظ لي وتركت له عمله ولي عملي » ويعني صاحبنا العماد بقوله هذا انه عني بايراد النصوص فقط وطوى في الغالب احاديث الفتح الخاصة التي تحدث بها عن اصحابه وأبناء عصره ، وبعضها احاديث طلية تناولت جملة من الشؤون الأدبية والتاريخية وللفتح ابن خاقان اسلوبه المعروف في هذه الناحية . والغالب أن الأصل الذي اعتمد عليه العماد من « قلائد العقيان » يختلف عن الأصول التي بأيدينا وخصوصا المطبوع منها ، ففي نسخة العماد زيادات ومواد منظومة ومنثورة لا توجد في النسخ المطبوعة[1] .

تقييدات المصريين :

يستفاد من التأمل في هذا القسم اقسام من الخريدة ان العماد اقتنى في مصر مجاميع شعرية كثيرة مغفلة أو غير منسوبة الى احد ، على أنه أكثر من النقل عن هذه الوثائق والمجاميع ، تارة يقول : « رأيت في تقييدات المصريين » وطورا : « وجدت في مجموع » إلى غير ذلك ، وهذا النوع من المآخذ كثير في وثائق المصريين .

---

(١) يحسن تصحيح النسخ المطبوعة من « القلائد » بمقابلتها على هذا الأصل من الخريدة فهناك اختلاف غير قليل من تقديم وتأخير وزيادة ونقصان ، مع العلم أن الاستفادة من نسخة « الخريدة » التي بأيدينا لا تخلو من صعوبة لكثرة ما فيها من الغلط والفساد والاستحالة .

شعراء صقلية وشعرهم :

من مميزات شعراء صقلية في هذا القسم تأثرهم بالبيئة التي نشأوا فيها فنراهم يستوحون مظاهر الجمال في طبيعة البلاد ويكثرون من التغني بـذكر المتنـزهات والحـدائق والقصور. ووصف مغـاني الجزيـرة وريـاضهـا الجميلة ويستفاد من كثرة عدد شعراء عرب صقلية وأدبائها أن الآداب الشائعة في تلك الجزيرة خلال المائتين الخامسة والسادسة هي آداب اللغة العربية لا تجاريها آداب لغة من لغات الفرنجة كالرومية واللاتينية واليونانية . وقد تناقلت ايدي الأدباء هناك دواوين الشعراء ؛ فهذا ديوان ابن حمديس وابنه محمد ، وهذا ديوان الشريف الإدريسي صاحب النزهة . وكثر التأليف في صقلية وتناول المؤلفون شتى الموضوعات ؛ فألف الإدريسي كتب البلدان وألف في علم النبات كتاباً من أنفس الكتب ، وهذا ابن ظفر رحل الى صقلية سنة ٥٥٤ وصنف لأحد قوادها كتابه (سلوان المطاع في عدوان الأتباع) .

ويلاحظ أن كثيراً من شعراء صقلية مسلمين وعرباً مدحوا رُجار الفرنجي المستولي على الجزيرة . ويستنتج من كثرة ما نظمه الشعراء في مدحه أن له أي لرُجار مشاركة في الأدب وأنه يتذوق الشعر المنظوم باللغة العربية . ومن الطريف أن العماد يعلق على بعض ما يورده من القصائد في مدح صاحب صقلية بقوله : « اختصرت القصيدة على بعض ما أوردته منها لأنها في مدح الكفار » ومن هذا القبيل قصيدة للشيخ أبي حفص عمر ابن حسن النحوي الصقلي مدح بها رُجار المذكور وهو في قبضة الأسار .

ويلاحظ أيضا ان أكثر الشعر الذي يورده العماد لهذه الطبقة من شعراء صقلية شعر ركيك . ويعنينا من إيراد ما نورده أحيانا من هذه الأشعار قيمتها التاريخية أكثر من قيمتها الفنية إذا استثنينا من ذلك شعر ابن حمديس وابنه وشعر ابن القطاع وبعض الأمراء الكلبيين . ويعتمد العماد غالباً في نقل هذا الشعر على حديقة أمية بن ابي الصلت وعلى كتاب المختار لابن بشرون وعلى روايات الشريف الإدريسي . وهو راوية لشعر

شعراء المغرب والأندلس وصقلية والقيروان . ولا يورد العماد إلا نماذج من القصائد التي مدح بها شعراء صقلية للملك رجار لتحرجه من إثبات مدائح الملك المذكور ، قال ذلك اكثر من مرة . وعلى كل حال فإن هذا المجموع من شعر شعراء صقلية أشبه بمختارات شعرية منه بكتاب في التراجم والسيرة . ويستفاد منه ان جملة من شعراء صقلية هجروها إلى افريقية أي تونس وإلى القيروان ومصر والأندلس والمغرب لما أشرف الإفرنج على تملك الجزيرة ومن هؤلاء من تقلد أعمال ديوانية في هذه البلاد .

دلالة أبواب الكتاب :

ولأبواب هذا الكتاب التي وضعها العماد دلالتها على منهجه في تأليفه فمن ذلك باب عنوانه « في ذكر محاسن جماعة من المغرب الأدنى والقيروان وافريقية » وباب آخر عنوانه « جماعة أوردهم ابن بشرون في مختاره من أهل المغرب الأوسط الذي كان لبني حماد واستولى عليه عبد المؤمن » وفي هذين البابين وغيرهما من أبواب هذا القسم فوائد تاريخية ممتعة خصوصاً عن الدولة الحمادية وعن أصحاب الدواوين والانشاء والمتصرفين في الرسائل السلطانية فيها. وباب ثالث عنوانه « ذكر جماعة من أهل المغرب وردوا الشام والعراق » وباب رابع عنوانه « في ذكر عدة من شعراء المغرب » .

تعليقات أندلسية :

ومما تميزت به نسختنا هذه من الخريدة تعليقات طريفة علقها على حواشيها أديب أندلسي عني بمطالعة هذا القسم من أوله إلى آخره ، وجاءت التعليقات بخط مغربي أو أندلسي ، والمعلق أديب عارف بالشعر والنقد الأدبي ملم بتاريخ الأندلس والمغرب وبشيء من تاريخ آداب اللغة العربية في الديار المغربية والأندلسية . ومما حز في نفس هذا الأديب المعلق كثرة السقط والغلط الفاضح في هذه النسخة ، فقال في بعض تعاليقه على

هامشها : « ما أسقم هذه النسخة أبعد الله ناسخها وأقصاه ، ولا حفظه الله ولا تولاه » وقال في تعليقة اخرى : « لم تر عيني أسقم من خط كاتب هذه النسخة ما جهله ، وما أقل حذقه ، وأبعد فهمه ، وأكثر تصحيفه ، لا بارك الله فيه ولا في أمثاله من النساخ بل المسّاخ » وهذا المعلق لم يشأ أن يذكر اسمه . ومن المؤكد أنه ليس من أدباء المشرق ونرجح أنه من أدباء المغرب أو الأندلسيين الذين هاجروا الى مصر بعد أن ضاق بهم الأمر في ديارهم . وفي عدد هؤلاء المهاجرين من الاندلس الى المشرق في تلك العصور كثرة ومما يؤكد لنا أن المعلق أندلسي الدار وأنه هاجر الى المشرق فيمن هاجر من الأندلسيين بعد غلبة الإفرنج على الجزيرة الخضراء تعليقة قرأناها له على كلمة « بَطَلْيُوس » التي وردت في المتن فقال : « بطليوس اسم مدينة من مدن الأندلس أعادها الله » ومعنى هذا أنه عني بهذه التعليقات بعد سقوط الأندلس وخروج أهلها المسلمين من تلك الديار . ولذلك نرجح أنه من أبناء المائة العاشرة او أوائل المائة الحادية عشرة، فهو من معاصري المقري صاحب « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » على وجه التقريب . ومن رأينا أيضاً ان هذا المعلق ظفر بهذه النسخة بعد حصوله في مصر فطالعها من أولها إلى آخرها وعني بالتعليق عليها . وتعليقاته منوعة ، منها تعليقات لغوية وأخرى أدبية وتاريخية ونحن نورد أمثلة من تلك التعليقات الأندلسية .

١ ـ شاعرات الأندلس :

جاء في تعليق الأديب المذكور على ترجمة امرأة سميت « خدّوج » أوردها العماد في الخريدة ، نعتت بهذا اللقب واسمها « خديجة » ابنة أحمد ابن كلثوم العامري قال العماد : « وهي شاعرة حاذقة مشهورة ، ولها ترسل لا يقع مثله لحذاق المترسلين » ، وآخذ المعلق العماد الكاتب بقوله : « كان ينبغي للعماد رحمه الله أن يذكر هنا بقية شاعرات الأندلس اللواتي منهن ولادة بنت المستكفي التي هي عند ملوك الأندلس بمنزلة عُلية

بنت المهدي عند الخلفاء العباسيين ، ومنهن عائشة الوادآشية « التي من شعرها » :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا	وليس لهم عندي وعندك من ثأر
وشنوا على أسماعنا كل غارة	وقلت حُماتي عند ذاك وأنصاري
رميتهم من مقلتيك وأدمعي	ومن نَفسي بالماء والسيف النار

٢ ـ مأساة المعتمد ابن عباد :

وردت في الخريدة ترجمة للمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرطبة ، وفيها إشارة إلى مأساته المعروفة ونفي يوسف بن تاشفين له إلى المغرب ، وقد وردت في الترجمة أبيات للمعتمد مدح فيها ملك المرابطين وهنأه بظفره في بعض وقايعه مع الفرنجة بالأندلس . وقد جاء في تعليق المعلق على هذه النسخة من الخريدة عبارة فيها ذم ليوسف بن تاشفين وتنديد بفعلته مع المعتمد بن عباد وما قابل به فعله الجميل . ومدحه إياه بهذه القصيدة وغيرها ، وما بذله له من الإكرام ومزيد التعظيم والاحترام والضيافة بإشبيلية عند انصرافه من هذه الغزوة ، وكان المعتمد قادراً على مسكه وقتله أو أسره ، وقد أشير عليه بذلك فأبى وقال : لا أكون غادراً بضيفي ، ولعمري لقد ضيع الحزم ووضع الوفاء في غير محله ، فقاتل الله ابن تاشفين » .

هذا هو مجمل التعليق، وقد حذفنا منه بعض العبارات المخلة بمكانة يوسف بن تاشفين . ولا بد لنا من القول بأننا لسنا من رأي صاحب التعليقات الأندلسية في مقدرة المعتمد بن عباد على البطش بملك المرابطين في تلك الفترة العصيبة من التاريخ .

٣ - الأندلسيون والمغاربة :

هذا ويستفاد على كل حال من تعليق هذا الأديب الأندلسي على قصة ابن تاشفين مع ابن عباد أنه عني بدرس تاريخ الأندلس في هذه المرحلة العصيبة . وكون له رأياً في القصة المذكورة فكان إلى جانب المعتمد ابن عباد فيها منكراً أشد الإنكار مسلك ابن تاشفين معه . ومن رأي معلقنا الأندلسي أن ابن عباد ضيع الحزم ووضع الوفاء في غير موضعه . والحزم في رأيه هو اعتقال ملك المغرب ابن تاشفين طبقاً لرأي من أشار عليه بذلك . ولهذا البحث بحذافيره أصل في كتب التاريخ لا شك أن الأديب الأندلسي وقف عليه ، ومن المؤرخين الذين عنوا بذكره القاضي ابن خلكان[١] . وخلاصته أن رجلاً من عامة الناس في إشبلية رغب إلى ابن عباد أن يخلو به ليفضي له بنصيحة واجبة فأجيب إلى ذلك وتحدث إلى ابن عباد . ويستفاد من هذا الحديث أن صاحبه اطلع من أصحاب ملك المغرب يوسف بن تاشفين على مطامعهم بالأندلس . والاستيلاء على دولة بني عباد وغيرها . وأكثر من ذلك زعمهم أنهم أحق بهذا الملك من أصحابه الأندلسيين . وتخلص هذا الناصح في ختام حديثه إلى أن سياسة الحزم ورعاية مصالح الأندلسيين تقضي باعتقال يوسف بن تاشفين في قصر من قصور الأندلس أو في قلعة من قلاعها . وإلزامه بتوقيع مرسوم يأمر فيه جيشه المرابط في الأندلس بالجلاء إلى المغرب وإخلاء الديار الأندلسية . ويقول راوي الحديث إن المعتمد استصوب هذا الرأي بيد أن ندماءه المسترسلين باللذات معه عدلوه عن ذلك .

هذه هي خلاصة ما أورده المؤرخون في هذا الباب ، وسواء أكانت هذه الرواية صحيحة برمتها أو لم تكن كذلك فإن يوسف بن تاشفين ملك المرابطين وبطل واقعة الزلاّقة وغيرها من وقائع الأندلس الكبرى لم يكن

(١) وفيات الأعيان ٢ : ٤٨٦ .

من الملوك الذين يؤخذون على غرة وكان في صحبته من أهل الرأي في الحرب والسياسة ما لم يكن مع المعتمد بن عباد ، وقد عني القوم منذ اجتازوا البحر إلى الأندلس بدراسة أحوال الجزيرة الخضراء وسائر أقاليم الأندلس دراسة وافية مكنتهم من الاطلاع على أوضاعها واستبطان أسرارها والوقوف على حالة ملوك الطوائف المتناحرة فيما بينها وغفلة القوم عن حفظ ثغورهم وضبطها ورعاية مصالحها وانغماسهم بحمأة الشهوات وفي أفحش أنواع الاستهتار ، وقد خلصوا من ذلك إلى أن المرابطين أحق بذلك الملك من الاندلسيين .

٤ ـ مناحة الشعراء :

وقد مر بنا شيء عن ضعف المعتمد بن عباد ، وفي مظاهر التناقض في سيرته ، ولم يكن أبو بكر ابن اللبانة من فحول شعرائه دونه في إحساسه المرهف ، وشدة التأثر والانفعال . فإن شعر هذا الشاعر الباكي المنظوم في مأساة ملك إشبيلية وأولاده من بعده من ذلك الشعر الذي يستدر الدموع ويثير الأشجان ، وحسبنا تائيته المشهورة التي نظمها في تأبينه وألقاها على قبره في أغمات وقد شد الشاعر رحاله من الأندلس إلى هذه المدينة في مراكش لينشد تلك القصيدة على مقبرة ابن عباد .

لكــل شيء من الأشيـاء ميقــات ... والمنـى مـن منـايـاهن غــايــات
انفض يـديك من الـدنيا وسـاكنها ... فالأرض قد اقفرت والناس قد ماتوا
وقـل لعـالَمهــا العلوي قـد حتمت ... سـريـرة العـالم الأرض أغمــات

ومثل ذلك قصائد ابن اللبان الأخرى في التوجع لمصير أبناء الملك وبناته في مراكش واضطرارهم إلى تعاطي الغزل بالأجرة او إلى العمل في حوانيت الصاغة ، وقد راع الشاعر الداني ما رآه من أثر الدخان والفحم على ملامح أولئك الفعلة من أبناء الملوك واحتراف أحط الحرف في سبيل

بُلغة العيش على ما جاء في بعض كتب التاريخ .

صــرفت في آلـة الصــواغ ، أنملة — لم تــدر إلا النـدى والسيف والقلما
للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى — يــوم رأيتـك فيــه تنفـخ الفحــما
ما حطك الدهر لما حط من شرف — ولا تحيَّفَ من أخـلاقـك الكــرما

هذه أبيات مقتطعة من قصيدة مشهورة لابن اللبانة في هذا المعنى وهي لا تدل على أكثر من أن الشاعر رأى أولاد المعتمد بن عباد يستعملون قصبة الصايغ في نفخ المواقد ، وشاهد أثر الفحم على وجوههم . والغالب أنه شاهد ذلك في بيوتهم . ونحن نستبعد ما جاء في بعض كتب التاريخ من أنهم استخدموا في حوانيت الصاغة وأن البنات احترفن الغزْل بالأجرة ولا نظن حكام المغرب والمغاربة في ذلك العصر يستسيغون ذلك .

قال القاضي ابن خلكان في ترجمة المعتمد بن عباد بعد ايراد نبذة من شعر ابن اللبانةِ فيه ما يأتي « له في البكاء على أيامهم وانتشار نظامهم عدة مقاطيع وقصائد مطولات يشتمل عليها جزء لطيف سماه (نظم السلوك في وعظ الملوك)» وقال المؤرخ المذكور ايضاً اجتمع عند قبره ـ يعني ابن عباد ـ جماعة من الشعراء كانوا يقصدونه بالمدائح فرثوه بقصائد مطولة أنشدوها عند قبره منهم أبو بحر عبد الصمد شاعره المختص به أنشد قصيدة مشهورة أولها .

ملكَ الملوك أسامع فأنادي — أم قد عدتك عن السماع عوادي

٥ ـ تضارب الآراء في القصة :

ويصح أن يتخذ ما قيل من الشعر في هذه الحادثة وبالخاصة شعر ابن اللبانة وشعر المعتمد بن عباد نفسه أصلاً لتأليف مسرحية من صنف

المآسي ، فإن المعتمد بعد نكبته ونفيه إلى مراكش لم ينقطع عن نظم الشعر بيد أنه شعر رثى به نفسه ، وندب سوء حظه وضياع ملكه في أكثر من قصيدة . ولا عجب فالمعتمد معدود في طبقة المجوّدين من شعراء الأندلس هذا بالاضافة الى ما طبع عليه من خلال طيبة وسجايا حميدة ، ولا يعرف في ملوك الأندلس من ضاهاه في حب الأدباء والشعراء وازاحة عللهم وإقالة عثراتهم وحب الاتصال بهم وتزجية الوقت معهم إذا استثنينا ما فعله بإبن عمار حتى أخذ عليه الإفراط في هذا الشأن ، وكان يستدعي الشعراء إلى بلاده من صقلية والقيروان والمغرب على وجه لا يعرف له نظير إلا فيما ذكر من أخبار بعض خلفاء بني العباس أو أخبار الصاحب بن عباد في المشرق . هذا ولا بد لنا من الاشارة الى تضارب الآراء فيما أصاب المعتمد ابن عباد ، فهناك من يعذر ملك المرابطين يوسف بن تاشفين في معاملته لابن عباد ولبقية ملوك الطوائف في الأندلس بسبب تخاذلهم وتطاحنهم فيما بينهم تطاحناً أنهك قواهم ، وفرق كلمتهم حتى تأصلت بينهم الأحقاد وحتى أنهم لم يحجموا عن التحالف مع الأسبانيين على أبناء جلدتهم ، وهم في غفلة عما يدبر لهم إلى أن وقعت الواقعة التي انتهت بطرد المسلمين من الديار الأندلسية . ومما يعزز هذا الرأي فتوى فقهاء المغرب والأندلس معاً بجواز خلع من ثبت عجزه وتفريطه من ملوك الطوائف وعلى هذه الفتوى استند ملك المرابطين فيما فعله بملوك الأقاليم الأندلسية . هذا ومن المؤرخين من يميل إلى مؤاخذة يوسف بن تاشفين في فعلته ، ومن رأي هؤلاء أن ابن عباد لم يُقصِّر في الاحتفاء بمقدم المرابطين إلى الأندلس ولم يأل جهداً في الترحيب بهم ومزاملتهم في الكفاح المشترك من أجل حفظ الثغور وخضد شوكة الأسبانيين واسترداد ما أضاعه الأندلسيون من البلاد .

٦ - طعام المركاز :

أورد العماد في ترجمة علي بن الزيتوني الشاعر قوله في طعام المركاز(١) :

لا آكل المركاز دهري ولو تقطفه كفي بروض الجنان
لأنه أشبه فيما ترى أضالع المصلوب بعد الثمان

قال المعلق في تعريف المركاز : « المركاز » بتقديم الراء على الزاي عبارة عن النقانق التي تحشى باللحم المدقوق وتقلى ، وما أقبح هذا التشبيه وأسمجه وأبرده ، هذا وهو صادر عن شاعر المغرب ، ولا شك أن مثل هذا التشبيه لا يقوله شاعر المشرق .

٧ - بحر الظلمة :

علق على ما ورد في المتن عن بلدة « أغمات » وأن بينها وبين بحر الظلمة ثلاثة أيام قائلا : « ليس كما قال المؤلف أنه بحر الظلمة وإنما هو البحر الكبير المحيط » وأما محل الظلمات فيه فهي مواقع مخصوصة تبعد الشمس فيها عن ذلك المحل إذا كانت في المنطقة الشمالية كما هو مقرر في كتب الهيئة .

٨ - بيتان لابن رشيق القيرواني ينسبان للشاعر الأندلسي ابن عمار ، قال العماد الكاتب في الخريدة ، ومما ينسب إليه - أي إلى ابن عمار .

مما يقبح عندي ذكر أندلس أسماء مقتدر فيها ومعتضد
أسماء مملكة في غير موضعها كالهر يبدي انتفاخا صولة الأسد

---

(١) جاء في شفاء الغليل مركاز براء مهملة وكاف وزاي معجمة النقانق بلغة أهل المغرب وهي مولدة غير عربية نقله الزيتوني : قال الشاعر وأورد الخفاجي بعد ذلك البيتين كما هما في المتن وعلق عليهما بقوله : قلت هذا الشعر لأبي أحمد المعروف من شعراء الذخيرة .

قال المعلق الأندلسي في التعليق على ذلك . البيتان ليس له ـ أي لابن عمار ـ وإنما هما لابن رشيق « صاحب العمدة » لما قدم إلى الأندلس فلم ينل بها ما يهواه وعاد إلى بلاده ، هذا وفي هذا التعليق كلمات أخرى مقطوعة في النسخة .

٩ ـ رائية ابن عمار :

قال العماد بعد أن أورد أبياتا قليلة من رائية ابن عمار المشهورة التي أولها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

« نقلت تمام البيوت من مجموع » وقال المعلق : « هذه القصيدة أشهر من « قفا » وأقرب كتاب (وما يلي هذه الكلمة لا يقرأ) القلائد ، والمصنف يعرفه وينقل عنه وهو عمدة فيما ينقل فكيف يقول : « نقلت تمام البيوت من مجموع » وهذه الجملة من جملة مهملاته رحمه الله .

١٠ ـ بيت مشهور للمعري :

في قصيدة لابن عمار ، أورد العماد لابن عمار في ترجمته من كتاب « الخريدة » .

لم نثن عنك عنان سلوة خطرت على فؤادي ولا سمعي ولا بصري
لكن عدتني عنكم رحلة سلفت كفاني القول فيها خير متعذر
لو اختصرتم من الإحسان زرتكم والعذب يهجر للإفراط في الخصر

قال الأديب الأندلسي في تعليقه : هذا البيت الأخير من قصيدة لأبي العلاء المعري مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر لعل بالجزع أعواناً على السهر

وقال بعد ذلك : « والمؤلف سكت عن التنبيه على ذلك لاشتهاره » .

١١ - شعر المغاربة :

توسع العماد الكاتب في ترجمته لأبن اللبانة شاعر المعتمد بن عباد . وأكثر من إيراد أشعاره في الخريدة على وجه يستفاد منه أن هذا الشاعر الأندلسي المغربي ملك إعجاب صاحب الخريدة التي كان سيء الظن بشعر المغاربة وأنه شعر تعوزه السلاسة - على حد تعبيره - فلما قرأ شعر هذا الشاعر غير رأيه فإذا هو يرى شعر ابن عمار أصفى من العسل وأحلى من الضرب وأنفى للكرب ، كما جاء في متن هذه النسخة من الخريدة . هذا وقد ساء المعلق ما ورد في هذه الترجمة من التعريض بشعر المغاربة فكتب أمام كلمة « المغاربة » من الخريدة ما يأتي : « قف على هذا المحل من كلام العماد سامحه الله وإيانا » ويعني هذا أنه يخالف العماد فيما ذهب إليه من أن شعر المغاربة تعوزه السلاسة .

أعلام الفكر والفلسفة في دول الأندلس والمغرب :

قطعت الأندلس الإسلامية في عصور ملوك الطوائف وعصور المرابطين بعد ذلك مرحلة بعيدة من النضج العقلي واختمرت فيها مذاهب مختلفة اجتماعية واقتصادية وفلسفية كان من مظاهرها ضرب من الصراع العقلي بين طبقتين من الأندلسيين أعلام الفلسفة والأدب والشعر من جهة ، ورجال الحكم والقضاء من جهة ثانية ، وتبدو مظاهر هذا الصراع عند التأمل في تاريخ حواضر الأندلس الكبرى ، ومنها قرطبة وغرناطة وأشبيلية ، ولا نغلو اذا قلنا : إن هنالك ظاهرة إجرامية منكرة تبدو لنا من خلال التأمل في تاريخ البلاد الأندلسية وبعض الأقطار المغربية حيث أزهقت ارواح طبقة من أشهر أدبائها وشعرائها وأعلام الفكر والفلسفة

فيها ، وعلى آخرون ضربا من القسوة والاضطهاد تقشعر له الأبدان ، ومن صرعى هذه الجرائم ابن هاني الشاعر الفحل المشهور وابن عمار وإن اتهم بالغدر والخيانة والفتح بن خاقان ، وابن الصايغ ، وابن الأبار ، ولسان الدين بن الخطيب ، وممن عانى المحنة قبل ذلك الفيلسوف ابن رشد ، إلى آخرين من أمثالهم ، ومن الغريب أن تبقى أسباب هذه الجرائم غامضة يعجز التحقيق عن كشفها في بعض الأحيان إذا كان ثمة تحقيق في مقتل ابن هاني اكتفى المؤرخون بقولهم : وجد مقتولا في مجلس أنس أو نحو ذلك ، وفي مقتل الفتح بن خاقان قالوا : وجد مخنوقا في خان ، ويبدو لنا من التأمل في تاريخ البلاد المذكورة ان مرد هذه الأحداث إلى مساوىء الأخلاق من قبيل الحسد والمكايد والدسائس وإلى ضرب من الفساد كان فاشيا في قصور الحكام ودواوين الدولة وبالخاصة في عصور ملوك الطوائف من الأندلسيين .

لم يجمع المؤرخون على رأي في موقفهم من هذه المحن والنكايات التي عاناها فريق من أعلام الفكر والأدب والفلسفة . ولم يتفقوا على قول في تعليل اضطهاد الفلاسفة وكراهية الأندلسيين لحملتها في بعض العصور ، ويستفاد من التأمل في بعض نصوص التاريخ ان لجهل طبقة من العوالم وجمودها دخلا في ذلك ، ولكن العوام في الغالب تابعون أو مقلدون لا متبوعون ، والمرجح أن العامة كانت في مواقفها المذكورة متأثرة بآراء بعض القضاة والرؤساء ، قال ابن سعيد ونقله عنه المقري[1] : « كل العلوم لها عندهم ـ يعني الأندلسيين ـ حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم فإن لها حظاً عظيما عند خواصهم ولا يتظاهرون بها خوف العامة فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم أطلقت العامة عليه اسم « زنديق » وقيدت عليه أنفاسه فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو أحرقوه قبل أن يصل أمره الى السلطان . أو يقتله السلطان تقربا الى قلوب العامة ، وكثيرا ما تأمر ملوكهم على إحراق كتبه إذا وجدت ، وبذلك

(١) النفح (١/١٢) .

تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه ، وإن كان غير خال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري » هذا ما أورده المقري ، وابن أبي عامر هذا هو محمد بن الوليد القحطاني العافري الأندلسي الحاجب الملك المنصور ، كان مدبر دولة هشام بن المستنصر الأموي ، عمد أول تغلبه إلى خزائن كتب المستنصر فأبرز ما فيها من صنوف التواليف بمحضر خواصه من العلماء . وأمر بإفراد ما فيها من كتب الأوائل حاشا كتب الطب والحساب وامر بإحراقها وأحرقت وطمَّ بعضها ، وكانت كثيرة جدا ، فعل ذلك تحبباً إلى العوام وتقبيحاً لرأي المستنصر[1] .

كان من المتوقع أن تتضارب آراء النقاد والمؤرخين في هذه الحركة الفكرية وأن ينقسموا إلى فرق لكل فرقة مذهبها ، ففرقة هاجمت جمهرة من المعنيين بالحكمة والفلسفة والأدب في الأندلس ووجهت إليهم أشنع التهم ، ومن أشهرهم في ذلك الفتح بن خاقان في كتابيه « المطمح » و« القلائد » ومنهم المحدث بن دحية في كتاب « المطرب من شعر شعراء أهل المغرب » وإن لم يبلغ شأو ابن خاقان في ذلك . وفرقة أخرى اختارت الدفاع ومالت إلى تنزيه الفلاسفة وأعلام الفكر وتبرئة ساحتهم ومن الأمثلة الحسنة لأصحاب هذا المذهب الأديب المؤرخ العماد الكاتب صاحب « الخريدة » فإنه عني عناية بالغة بدرس مصنفات الفتح ولم يعجبه إسراف صاحب « القلائد » في مطاعنه واسترساله في تهجمه بلهجة يتجافى عنها الأديب حقاً ، وممن مال في منهجه إلى الدفاع عنهم المؤرخ الأديب عبد الواحد المراكشي . وكان لأبن بسام موقف وسط بين الفلاسفة وخصومهم من الرؤساء والقضاة وبعض الحكام . ومن المفيد عرض تلك الاراء والمناهج المختلفة هنا على الصورة الآتية :

منهج الفتح بن خاقان :

كان الفتح فذاً في الجرأة وإلصاق التهم ببعض أعلام الفكر والأدب

---

(١) انظر ترجمة ابن أبي عامر في الوافي بالوفيات (٣/٣١٢) .

والفلسفة في الأندلس . وما أشبه موقفه في « القلائد » و« المطمح » بموقف الشامت الذي يؤلب زعماء عصره على النكاية بأولئك الأدباء والحكماء ، فهو يستهل تراجم من يترجم لهم من هؤلاء بالثلب . ولا يتحرج من القذف وإلصاق التهم من قبيل المروق والتعطيل ، وانحلال المعتقد ويستخدم في هذا الباب أشد العبارات جفاء وأكثرها غلظة وبعدا عن الذوق السليم ، استهل ترجمة ابن الصايغ المعروف بابن باجه آخر فلاسفة الأندلس بقوله : « هو رمد جفن الدين وكمد نفوس المهتدين ، ناهيك من رجل ما تطهر من جنابة ولا أظهر مخيلة أنابه » وقال في جملة ما قاله عنه في « المطمح » « اقتصر على الهيئة وأنكر أن تكون إلى الله تعالى فيئة، وحكم الكواكب بالتدبير واجترم على الله اللطيف الخبير »[1] .

وقد توهم الفتح أن صوغ السباب بمثل هذه العبارات المسجوعة مدعاة للإعجاب بأدبه ، والحقيقة أن ذلك مما يدعو إلى النفرة منه . ففي ذلك جناية على الأدب وإفراط في البذاءة .

أخذ الفتح بن خاقان على أسلوبه هذا فريق من الأباء المعروفين ، قال ابن بشرون المهدوي في « المختار » : « له تصانيف تشهد على توسعه في الرواية إلا أنه يضع من نفسه بشدة تبذله وغضه من ذوي الرتب وإساءة الأدب ، وتمليه من الخلاعة مما ينفر عنه كل ذي عقل رصين » وابن بشرون هذا وصف الفيلسوف ابن باجه المذكور بالتفرد بعلم الهيئة والهندسة العملية والنظرية وسائر العلوم الحكمية والأدبية ، وذكر انه استوزره أبو بكر يحي بن تاشفين مدة عشرين سنة وانتفع الناس به وصلحت به الأحوال ونجحت الآمال وحسده أطباء البلد وكادوه ونالوا بقتله مسموماً ما أرادوه وفي ترجمة ابن باجه من كتاب الخريدة لأم العماد الفتح بن خاقان في تهجمه على هذا الفيلسوف ثم أثنى ثناء بالغاً عليه ومن ذلك قوله : « أجمع الفضلاء على أنه لم يلحق أحد مداه في زمانه ولم يوجد شرواه في إحسانه ، وقد ختم به علم الهندسة وتداعت بموته مباني الحكمة

(١) المطمح (٣٠٠) .

المؤسسة ، ولابن باجه السرقسطي هذا ترجمة سابقة في الخريدة قال العماد فيها « لم يبلغ درجته أحد من أهل عصرنا في الحكمة ، وله تصانيف في الرياضيات والمنطق والهندسة فاق فيها المتقدمين » وقال ابن خلكان في ترجمة ابن باجة بعد إيراد أقوال الفتح فيه : « بالغ ابن خاقان في أمره وجاوز الحد في وصفه »[١] .

هذا ويقول ابن دحية في الفتح بن خاقان : « كان مخلوع العذار[٢] ويقول ابن الأبار عنه في معجمه[٣] : « لم يكن مرضياً وحذفه أولى من إثباته » قال المقري : « ولذا لم يذكره في التكملة » ، وأورد المقري ايضاً قول ابن الخطيب فيه : « ما ترك بلاداً من بلاد الأندلس إلا دخله مسترفداً أميره ، إلا أن بطالته أخلت به ، وكان آية من آيات البلاغة محارفاً مقدوراً عليه ، لا يمل من المعاقرة والقصف حتى هان قدره » . هذا ويستفاد من التأمل في الموارد التي استعمل فيها كلمة « البطالة » في تاريخ أدباء الأندلس أنها تعني المجون والخلاعة على أنها ليست كذلك في مصطلحات الكتاب والمؤلفين من المشاركة غالباً . فإذا قال الأندلسيون « غلبت عليه البطالة » أرادوا الخلاعة وحب القصف والمجون ولم يقصدوا العطلة من الأعمال . ولاستعمال كلمة البطالة بمعنى المجون نظائر في تاريخ آداب اللغة العربية على عهد العباسيين في العراق .

يستفاد من آراء هؤلاء الأدباء والمؤرخين وغيرهم في الفتح بن خاقان أنه لم يكن مخلصاً في قذفه بمن قذف بهم من العلماء والأدباء ، ومن ذلك قوله في مستهل ترجمته لأبي جعفر بن البني أو ابن البتي : كان أليف غلمان وحليف كفر لا أيمان[٤] فالباعث على مثل هذا القذف لا يمكن ان

---

(١) الوفيات (٢/٧ ، ٨) .
(٢) المغرب (٢٨) .
(٣) النفح (٤/٢١) .
(٤) قلائد العقيان (٢٩٨) .

يكون باعثاً نبيلاً ، والغالب أنه لا يعدو المنفعة الخاصة ، فإن هذا الشاعر الفحل - أبو جعفر - هجا زعيما من زعماء قرطبة كانت لصاحب القلائد صلة وثيقة به .

منهج صاحب المعجب :

ومن الأمثلة الحسنة لأصحاب المذهب المعتدل في الدفاع عن المعنيين بالحكمة والأدب في الأندلس ، وفي الأسلوب الجميل عند سرد الحوادث المؤرخ الأديب عبد الواحد المراكشي مصنف « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » فهو مع حذقه في فن التاريخ من أعلام الأدب ونقدة الشعر ومن المعنيين بالفلسفة والعلوم الرياضية(١) ، ومختاراته من الشعر كما تقرؤها في كتابة المذكور وملاحظاته عليها فريدة في بابها ، وقد عني في مواضع من تاريخه الموجز، بموقف رجال السياسة وأصحاب السلطان في هذه المرحلة التاريخية العصيبة من طبقة أهل النظر والحكمة في الأندلس ، وعني كذلك بموقف بعض ملوك الطوائف في الأندلس نفسها من كبار أدبائها وشعرائها . وكيف تنكر من منهم لأعلام الفكر والأدب استناداً إلى آراء بعض القضاة والحكام مغاربة وأندلسيين ممن يتملقون مشارب الدهماء . عني المراكشي مثلا بقصة مقتل أبي بكر بن عمار أشهر شعراء الأندلس بعد ابن هاني ، وبعضهم يفضله عليه ، قتله المعتمد بن عباد صاحب قرطبة وأشبيلية سنة ٤٧٥ ، ويبدو لنا من التأمل في سيرة المعتمد الشاعر أنه أسير عاطفة هوجاء تمكنت منه وأوقعته في ورطات كثيرة ، فبينما نراه يتهالك في جنه إذ يبادر إلى قتل محبوبه ، وبينما هو صديق حميم إذا بصداقته تنقلب عداوة وضرباً من البطش وإراقة الدماء إلى أن فقد ملكه ومات غريباً عند المرابطين في ديارهم بالمغرب في قصة مشهورة تقدم

(١) أنظر ١١٩ ، ١٥٥ - ١٦٥

ذكرها ، وقد احتج المعتمد القاتل بغدر ابن عمار شاعره ووزيره وشك بوفاته وإخلاصه وأنه حاول الاستيلاء على عمالة من عمالاته ، أو كان يحدث نفسه بالملك على ما يقال .

وكانت طريقة المراكشي في سرد هذه الحوادث تشف عن رأيه الخاص وميله إلى تأييد اصحاب النظر والبحث من العلماء وإعجابه بهم وكراهيته لطبقة من المقلدين .

الغزالي بين أنصاره وخصومه في الأندلس :

كان ذلك في اواخر المائة الخامسة وفي عهد السلطان علي بن تاشفين ، وكانت الحروب دائرة على أشدها بين الأندلسيين والمغاربة من جهة ، وبين الجلالقة والفرنجة من جهة أخرى ، في هذا العصر اضطر أهل الأندلس إلى الاستنجاد بدول للمغرب فهب من هب منهم للنجدة واجتاز المرابطون إلى الأندلس وكشفوا الغمة عن أهلها في فترة معينة من تاريخ البلاد المذكورة ، ومن مميزات هذه الفترة اتجاه واضح إلى حفظ العقيدة وحياطة الشريعة والأخذ بظواهرها ، ويعني هذا الاتجاه طرح التعمق بالنظر والبحث . وإيثار طبقة الفقهاء والمحدثين على أساس الأخذ بمذهب معين هو مذهب المغاربة في الفقه ، ولم تعرف إذ ذاك إلا كتب المذهب المذكور وترك ما عداه ، وهذا ـ كما لا يخفى أجحاف بالعلم والحق حتى نسي ـ كما يقول صاحب المعجب ـ كتاب الله وحديث رسوله وذلك منتهى الجمود والتقليد . ولكن المرابطين في هذه الفترة التاريخية العصيبة كانوا يخوضون غمرة الكفاح المرير مع أعدائهم وأعداء دينهم في الغرب حتى أحتج لهم من أحتج من المصنفين في تاريخ هذه الفترة ، وعذرهم في اضطهاد من اضطهدوه من أصحاب المذاهب والآراء الفلسفية في الديار الأندلسية ، وكان ذلك استناداً إلى أقوال جملة من الفقهاء كانت الكتب تلو الكتب تصدر عنهم في الوعيد والتشديد والنهي عن الخوض في اصول الدين والعقائد على طريقة المتكلمين بحجة أن ذلك بدعة كرهها السلف .

والغالب أن كثيراً من كتب المشرق المصنفة في علم الكلام أو في أصول الدين والعقائد كانت ترد على الأندلس . وازداد إقبال الأندلسيين على دراستها وتحزب أهلها واختلفت آراؤهم باختلاف آراء المتكلمين ، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي إلى المغرب أمر ابن تاشفين بإحراقها وتوعد من وجدت عنده بسفك الدم والاستئصال .

ويستفاد من ذلك أن أهل الأندلس والمغرب أقبلوا إقبالاً بالغاً على كتب الغزالي وعنوا بدراستها والاستفادة منها ، ولم ترد في كتب أُولئك المؤرخين إشارة إلى كيفية وصول كتب أبي حامد الغزالي إلى المغرب وإلى الأندلس بعد ذلك ، ولم يسموا من حملها من العراق أو من المشرق إلى البلاد المذكورة .

ومن رأينا أن الأندلسيين أنفسهم ممن شدوا الرحال إلى المشرق وإلى العراق خاصة وقرؤا على الغزالي كتبه في بغداد أو في خراسان أو في الشام وفيهم جماعة من أعلام الأندلس في ذلك العصر ، نقول من رأينا إن هذه الطبقة من الأندلسيين أنفسهم هم الذين حملوا كتب الغزالي من المشرق إلى المغرب ، ولا بد لنا من القول أيضاً إن في هؤلاء الأندلسيين الذين اجتمعوا بالغزالي وأصحابه طبقة لم تعجبهم كتبه وآراؤه ونظراته المعروفة في أصول الدين ، وهي النظرات التي ضاق بها ذرعاً أولئك الجامدون والمقلدون او الحشوريون وبعض الظاهريين من أهل الحديث . ونلاحظ ، وهذا من الغريب جدا ، أن كتب الغزالي في أصول الفلسفة ككتبه في أصول الدين لم تسلم من مناقشتها والرد عليها في الأندلس والمغرب ، ومن هذا القبيل كتابه « تهافت الفلاسفة » الذي عني ابن رشد في الرد عليه دفاعا عن فلسفة أرسطاطاليس في كتاب مشهور سماه « تهافت التهافت » وادعى فيه أن الغزالي لم يتفهم جملة من اصول فلسفة المشّائين ، هذا ويلاحظ كذلك أن عدد الذين عنوا بالرد على آراءالغزالي في اصول الدين

من علماء الأندلس ـ كعدد أنصاره المتشيعين له ـ ليس بالقليل . ومن المفيد أن نذكر فيما يلي على سبيل المثال عالمين ، أحدهما من أنصاره وهو أبو بكر ابن العربي والآخر من خصومه وهو الفقيه الطرطوشي مؤلف كتاب سراج الملوك .

ابن العربي :

كان أبو بكر محمد بن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي الحافظ من أشهر علماء الأندلس الضالعين مع أبي حامد الغزالي . ولا عجب فإن ابن العربي هذا رحل مع والده إلى الشرق وصاحب الغزالي والشاشي ولقي في العراق ومصر جماعة من الأشياخ ، وكان من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها ، رجع إلى المغرب بعلم لم يدخل به أحد غيره . وأبو بكر ابن العربي هذا هو القائل ـ فيما نقل عنه : « كل من رحل ـ يعني إلى العراق والمشرق ـ لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي »[1] أو قال : « لم يرحل غيري وغير الباجي وأما غيرنا فقد تعب »[2] . وقيل إنه دخل بغداد مرتين ، ومن ذلك يستفاد أن الأندلسيين والمغاربة كانوا يعتزون بالرحلة إلى بغداد والمشرق والأخذ عن علمائهما والدراسة في معاهدهما ، وكانوا يعتبرون ديار الشرق معدن العلم والمعرفة والتحصيل .

هذا ، ولا عجب في أن يعود ابن العربي من رحلته إلى المشرق بعلم جم ، فإنه انتظم في طلاب اشهر جامعة علمية أنشئت في بغداد إذ ذاك هي المدرسة « النظامية » وكان أساتذتها من الأعلام المتضلعين في العلوم

---

(١) أزهار الرياض (٣/٦٣) .

(٢) الوفيات (١/٢١٥) ، وله ذكر في مادة « باجة » من كتاب « الروض » لابن عبد المنعم الحميري .

والفنون الإسلامية ، قال الصفدي « استُقضي - يعني ابن العربي - ببلده وانتفع به أهلها ، وكانت له رهبة على الخصوم وسورة على الظلمة[1] وسماه العماد في « الخريدة » قاضي الجماعة بمدينة إشبيلية ، ورد العراق وطاف في الآفاق ، قرأ على أبي حامد الغزالي وعاد إلى بلاد الأندلس سنة ٥٠٧ وألف على نمط الغزالي توفي ابن العربي بمدينة فاس سنة ٥٤٣ » .

الفقيه الطرطوشي :

يعد الفقيه ابو بكر ابن محمد الفهري المعروف بالطرطوشي مثالاً لفقهاء الأندلس الذين خاصموا الغزالي وأكثروا من الرد عليه ونقدوا مذهبه في كتاب « الإحياء » قال العماد في الخريدة « سكن مصر وانتفع به الفقهاء ، وتفقهوا عليه ، وشدت رواحل الطلاب إليه » ، أورد فقرات من منثوره وختمها بمقطعات من شعره .

أفرد المقري في أزهار الرياض ترجمة ضافية للطرطوشي وعدّه من مشايخ إجازة القاضي عياض ، صحب أبا الوليد الباجي وقرأ الأدب على أبي حزم باشبيلية وجاء في مادة « طرطوشة » من معجم الحميري : « ومن أهلها الفقيه الزاهد الطرطوشي الفهري نزل الإسكندرية ، صاحب « التعليق » في الخلاف ، وكتاب « الحوادث والبدع » وغير ذلك ، سكن بغداد وجمع بها الحديث وتفقه على الشاشي وزهده أكثر من علمه ، عاصر الغزالي ، وله في إحيائه كلام ، وكان منحرفاً عنه سيء الاعتقاد فيهز ويستفاد من سيرة الطرطوشي أنه من الزهاد المعروفين بالورع والتقوى وله أشعار ومصنفات مشهورة ، ومن أشهر مؤلفاته كتابه المسمى سراج

---

(١) الوافي بالوفيات (٣/ ٣٣٠) وممن عني بالترجمة له ابن خلكان في الوفيات (٥٩٨/٢) والمقري في نفح الطيب وأزهار الرياض .

الملوك[1] في الوعظ والسيرة ، ويقول الحاج خليفة عن هذا الكتاب : « ما سمع به ملك الا استكتبه ولا وزير إلا استصحبه » هذا وفي الكتاب ذكر لشيخه أبي الوليد الباجي وحديث عن بعض وقائع الأندلس ، وفيه بعض الحكايات عن نفسه وعن رحلته إلى المشرق وعن المستعين بن هود وبعض وقائعه على مدينة « وشقة » من ثغور الأندلس . وفي هذه الوقعة محص المسلمون واستولى الفرنجة على المدينة . وأهدى الطرطوشي كتابه هذا إلى أبي عبدالله محمد المعروف بابن البطايحي الذي تولى الوزارة في مصر بعد مقتل الأفضل أمير الجيوش في الدولة الفاطمية .

رأي ابن خلدون في الطرطوشي وكتابه :

أورد ابن خلدون هذا الكتاب من كتب الطرطوشي بين المصنفات التي تعالج ما عالجه في مقدمته من شؤون التاريخ فقال عنه : « حوم الطرطوشي في كتابه سراج الملوك وبوبه على أبواب تقرب من أبواب الكتاب لكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل ولا أوضح الأدلة وإنما يبوب الباب للمسألة ثم يستكثر من

---

(١) طبع ببولاق والاسكندرية ، ومن الطريف أن يطبع على هامشه كتاب « التبر المسبوك في نصيحة الملوك » للغزالي الذي عني الطرطوشي بخصومته والرد عليه . وقد ألف أبو حامد الغزالي كتاب السلوك هذا باللغة الفارسية ثم نقل إلى العربية والذي نقله اليها هو صفي الدين ابو الحسن علي بن المبارك الإربلي عم ابن المستوفي مصنف تاريخ اربل المشهور قال القاضي ابن خلكان في الوفيات (١/٥٦٢) وقد ذكره ابن شرف ابن المستوفي في تاريخه وكنت اسمع ذلك ايضا عنه أيام كنت في تلك البلاد وكان ذلك شهورا بين الناس .

الأحاديث والآثار وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده »[1] هذا ما قاله ابن خلدون عن كتاب سراج الملوك للطرطوشي وهو وإن لم يجد الكتاب وافياً بالمرام إلا أنه من الكتب التي عني بقراءتها على كل حال وحسبنا هذا دليلا على فضل المؤلف المذكور . وهذا الكتاب من كتب الطرطوشي في الواقع بكتُب المواعظ والآداب الشرعية اشبه منه بكتب علم الاجتماع والتاريخ .

الغزالي والمازري :

والغالب أن جماعة من فقهاء المغرب والأندلس والمحدثين هناك حذوا حذو الطرطوشي في انحرافهم عن الغزالي والرد عليه ومناقشة طريقته في كتاب الإحياء ومن أشهرهم الفقيه المازري القيرواني المفتي المشهور المتوفي سنة ٥٣٦ في المهدية فقد تضمنت قائمة مصنفاته كتاباً عنوانه « الكشف والإنباء على المترجم بالإحياء » تكلم فيه على الأحاديث التي وردت في كتاب الإحياء . ولاحظ أن الغزالي لم يكن متحرياً غاية التحري في إيراد تلك الأحاديث ، فعمد المازري إلى إسقاط ما أسقطه منها وإثبات ما أثبته . وهذا كل ما قالوه عن نقد المازري للغزالي في كتاب الكشف والإنباء . فليس هو على ما يقول بعض الباحثين من قبيل التحامل على الغزالي أو الازدراء به . والدليل على ذلك قوله في كتابه المذكور : « وأبو حامد الغزالي لا يشق أحد غباره في العلم وأصول الدين » ومن ذلك يستفاد أن انتقاده موجّه إلى ما ورد في الإحياء من الأحاديث الضعيفة .

ميل الاندلسيين الى الغزالي :

وفي رواية أوردها عبد الواحد المراكشي في « المعجب » في ختام

(١) مقدمة ابن خلدون (٣٣) .

بحثه عن إحراق كتب الغزالي يستفاد منها ميل أهل العلم والفضل من الأندلسيين إلى طريقة ابي حامد وأسلوب بحثه في أصول الدين ، وخلاصة هذه الرواية أن الغزالي عندما بلغه ما فعل المرابطون بمؤلفاته دعا أن يذهب مُلك من فعلَ ذلك بالكتب المذكورة وأن يُقتل ولده . ويقال إن ذلك شجع محمد بن عبدالله ابن تومرت المعروف بالمهدي على القيام بدعوته المشهورة وثورته على المرابطين في صدر المائة السادسة ، ولم نجد في كتب المؤرخين الأثبات ما يعزز صحة هذه الرواية . وعلى كل حال فإن كتاب المعجب[١] يتضمن بعد هذا سرداً للنجاح الذي حالف دعوة ابن تومرت وتغلبه على المرابطين . وكان الاختلال قد دب إلى دولتهم في الأندلس وتعاظمت الفتن واستولى الإفرنج على كثير من ثغور بلادهم التي انقسمت إلى أصحاب قلاع وحصون ومدن صغيرة ، وكان ذلك باعثاً على قيام دولة الموحدين وعبور جيوشهم إلى الأندلس للدفاع عن تلك البلاد .

الغزالي ويوسف بن تاشفين :

قال ابن خلكان : « بلغني أن أبا حامد الغزالي تغمده الله برحمته لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة ـ يعني يوسف بن تاشفين ـ وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه فوصل إلى الاسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم ـ وكنت وقفت على هذا الفصل في بعض الكتب وقد ذهب عني في هذا الوقت أين وجدته »[٢] .

في عصر الموحدين :

زالت دولة المرابطين بدعوة محمد بن عبدالله بن تومرت في بلاد

---

(١) المعجب (١١١ ، ١١٥) .

(٢) في ترجمة يوسف بن تاشفين من كتاب الوفيات ٢ : ٢٥١ .

السوس وخلفتها دولة الموحدين على بلاد المغرب والأندلس ، ولم يكن للجمود والجامدين في عصر الموحدين تلك الصولة التي عرفت في عهد المرابطين خصوصاً في أيام يوسف بن عبد المؤمن بن علي فإنه بعد أن تضلع في علوم الملة طمح به شرف نفسه وعلو همته على حد تعبير المراكشي في (المعجب) إلى تعلم الفلسفة ، وبدأ من ذلك بالطب ثم تخطى إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحَكَم المستنصر الأموي ، ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب إلى أن اجتمع له ما لم يجتمع لملك من ملوك تلك البلاد . ومعنى هذا إكباره للمعنيين بالفلسفة والحكمة .

وهكذا رأينا ابا بكر ابن الطفيل فيلسوف الأندلس قريباً منه بل اصبح شديد الشغف به والحب له يقيم عنده ليلا ونهاراً ، ولم يزل ابن الطفيل ـ على ما يقول صاحب المعجب ـ[1] يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار ويحضه على إكرامهم ، وهو الذي نبهه على ابن رشد فحينئذ عرفوه ونبه قدره عندهم . وفي كتاب « المعجب » حكاية طويلة مرفوعة بسندها إلى ابن رشد سرد فيها قصة دخوله على الملك الموحدي بحضور ابن الطفيل الذي نوه بفضله ، ومن ثم تجري محاورة غريبة بين الملك الموحدي وابن رشد في بحوث فلسفية عويصة دلت ـ بناء على ما جاء في هذه الرواية ـ على غزارة علم وقوة حفظ . وقد تولى الملك بعد ذلك إدارة الحديث بنفسه على شكل منقطع النظير من الاطلاع والخبرة بمسائل الفلسفة ازالت كل ما ساور نفس ابن رشد من قلق ووحشة فإنه دخل مجلس الملك يداخله شيء غير قليل من القلق والخوف . ويستفاد من هذه الرواية ، على فرض صحتها بحذافيرها ، أن أبا يعقوب[2] يوسف ملك

(١) المعجب (١٥٨) .

(٢) عني غير واحد من المؤرخين بالترجمة لأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وأشاروا إلى أن ميله إلى الفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم وإليه تنسب الدراهم اليوسفية وفي وصفه يقول بعض المؤرخين (كان رقيق حواشي اللسان ، حلو=

الموحدين قرأ ما حرر في تلك الفلسفة باللغة العربية . وتتحدث الرواية أيضاً عن استدعاء ابن الطفيل لابن رشد وإعلامه بأن أمير المؤمنين ـ وهو لقبه عند الموحدين ـ أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يشكو من قلق عبارة أرسطاطاليس وغموض أغراضه ويقترح عليه تلخيص كتبه وتقريب أغراضها ، فكان ذلك هو الباعث لابن رشد على تلخيص كتب الحكمة حسبما نقل عنه . ولا تخلو هذه الرواية ـ فيما نرى ـ من تنميق أو تصرف خصوصاً فيما يتعلق بمعالجة السلطان لبحوث من الفلسفة على وجه لا يحسنه إلا المنقطعون لهذه البحوث ، ولا ينهض به إلا أمثال ابن الطفيل وابن رشد من الحكماء ، وممن سرد هذه القصة بشيء من الاختصار القاضي ابن خلكان وقد جاء في كتابه أن يوسف الموحدي كان فقيهاً حافظاً متقناً ، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم .

مؤرخ يكبر ابن رشد :

ويفهم من هذا الفصل أن المراكشي صاحب « المعجب » كان معنياً بالفلسفة مقتنياً لأسفارها منصباً على مطالعتها مجوِّد لوصفها والتعريف بها ، وهو ـ أعني المراكشي ـ لا ينكر فضل هذا الملك الموحدي وسعة أفقه . ومن أجل ذلك خَتم هذا الفصل في كتابه بقوله « لم يكن في بني عبد المؤمن مَن تقدم منهم ومن تأخر ملك بالحقيقة غير ابي يعقوب » . ومن أحداث الأندلس التي سردها المراكشي بدقة ووضوح محنة الفيلسوف ابن رشد وعواملها وأسبابها ، سردها على وجه يشعرنا بأنه من جملة أنصار هذا الفيلسوف وأنصار طبقته من الفلاسفة الأندلسيين . ومع ذلك ، وهذا مما

=الألفاظ ، حسن الحديث ، طيب المجالسة ، أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها في الجاهلية والإسلام ، حفظ القرآن مع جملة من علوم الفقه ثم طمح إلى علم الحكمة فكان ضمن صحبة أبو بكر محمد بن الطفيل ولم يزل يجمع إليه العلماء من جميع الأقطار . أنظر وفيات الأعيان (٢/٤٩٣) .

يدل على استقلال رأيه وحياده ، أخذ على ابن رشد بعض شطحاته عندما تكلم عن الزرافة قائلا : « رأيتها عند ملك البربر » وفي عبارة ابن رشد هذه التي قالها في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس من كتبه المعروفة في الحكمة ، ما فيها من الاستخفاف بمنزلة ملك الموحدين على ما يرى صاحب « المعجب »[1] ، فهي عبارة لا تخلو من الجفاء ولا تتضمن شيئاً من الإطراء الذي جرت به عادة الكتاب وبطانة الملوك واصحاب الدواوين في ذلك الحين .

ملك المغرب لا ملك البربر :

ولو قال ابن رشد « ملك المغرب » مكان « ملك البربر » لكان في ذلك ضرب من الإطراء . ولكن ابن رشد جرى على سجيته . ومن رأينا أنه لم يكن ساذجاً ولا مغفلاً ، وجائز أن يكون له رأي خاص في بداوة البربر ، ولا يخفى أن علاقة الأندلسيين بالمغاربة وبدول المغرب لم تكن حسنة دائماً إلا في أوائل الفترة التي عبر فيها القوم إلى الجزيرة الخضراء لنجدة أهل الأندلس ، فاستقبلهم الأندلسيون مرحبين بإخوانهم المجاهدين مكبرين فيهم روح البذل والمفاداة، ثم حدث بعد ذلك ما أوجب الشك والريبة وتردت العلاقات القائمة بين الفريقين وتحركت الفتنة ، وكان الانغماس في حمأة الترف والحياة الناعمة الماجنة قد اضعف الأندلسيين فتهاونوا في الجهاد وشاع فيهم الشقاق ، مما هيأ للسلاجقة استرداد البلاد ، منهم واستئصال أهلها وطرد العرب على الوجه المعروف في التاريخ . أما المرابطون ومن بعدهم الموحدون من المغاربة فهم جنود أشداء ألفوا شظف العيش وخشونة الحياة . هذا وللملك المرابطين يوسف بن تاشفين كلمة جميلة قوية صور فيها قومه أو جنوده أحسن تصوير للأندلسيين فقال : « لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، وإنما همّ احدهم فرس

(١) المعجب : ٢٠٤ .

يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته »[1] ، وملك البربر بهذا الوصف يعرّض بالأندلسيين الذين لاهم لأحدهم ـ على حد قوله ـ « إلا كاس يشربها وقنية تسمعه ولهو يقطع به أيامه » .

ويستفاد من تضاعيف كتب المؤرخين أن المرابطين ومن بعدهم الموحدون دهشوا من مظاهر الحضارة الأندلسية الباذخة ، وكانوا يتساءلون ما هذا الرخاء ، أهو ميسر للجميع أم هو مما استأثر به المستأثرون : والحق أن الترف لا يكوّن في حد ذاته جريمة . ولكن الانغماس بمثل ما انغمس الأندلسيون فيه يؤدي إلى قطع الأواصر وارتكاب الموبقات . وعلى الاجمال عد المراكشي صدور تلك الكلمة ، غفلة من أبي الوليد ابن رشد أو تعريضاً ببداوة البربر والمغاربة وحاول التعليق على هذه البادرة بأن مداراة اصحاب السلطان امر واجب في سياسة الدولة ، وقد فاته أن ابن رشد لا يعرف المداورة والمخاتلة ولا أساليب كتبة الانشاء والمترسلين ، وإنما هو فيلسوف ذو رأي وعقيدة يحاسب نفسه على كل كلمة تصدر منه ولا يحيد عن رأيه ولو كلفه ذلك تحمّل الأذى والاضطهاد .

هذا ومن رأينا ان ملك الموحدين من البربر لم يكن معنياً بكثرة الإطراء وتدبيج العبارات الخلابة لولا تربص الحساد والمناوئين من أهل قرطبة بهذا الفيلسوف حتى انتهى به الأمر الى استجوابه والتحقيق معه ثم خروجه من الأندلس إلى المغرب حيث مات بمراكش سنة ٥٩٤ . ويستفاد من التأمل في أخبار هذه المحنة أن خصوم ابن رشد أرادوا الفتك به غير أن كثرة أنصاره ومكانة سلفه وأهل بيته في قرطبة حالت دون وقوع هذه الجريمة . هذا ومن الأدلة على أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ملك الموحدين لم يكن مضطغناً بالذات على هذا الفيلسوف خروج ابن رشد إلى مراكش وإقامته فيها إلى أن مات ، وهي كما لا يخفى قاعدة الموحدين وبلد

---

(١) المعجب ١٠٣ .

السلطان المذكور . ولم يخرج إليها إلا بطلب منهم ، وأن السلطان لما عاد إلى مراكش غير رأيه وعدل عن مناهضة الفلسفة والمغنيين بها بل جنح إلى تعلمها وأرسل في طلب ابن رشد وأحسن إليه . بعد أن تعدت تلك المحنة إلى جميع الأندلسيين المعنيين بدراسة الفلسفة وأحرقت كتبها في تلك البلاد .

لا يخامرنا أدنى شك بأن السلطان وهو في مراكش تنصل مما جرى على صاحبه وهو في قرطبة وأطلعه طُلَعَ تلك الحادثة وأوقفه على جانب من تلك الوشايات ، وإن لم يكن ابن رشد بحاجة إلى ذلك فإنه يعرف عن خصومه وخصوم الدعوة إلى الإصلاح أكثر مما يعرفه سلطان الموحدين المذكور . هذا وفي بعض كتب التاريخ أن المحنة المذكورة اتفقت في أيام يعقوب المنصور ابن يوسف ملك الموحدين .

ابن بسام :

مر بنا شيء عن موقف العماد الكاتب الأصفهاني صاحب « الخريدة » وموقف الفتح بن خاقان صاحب (القلائد) من هذه المعركة التي دارت في ميدان الفكر ، فما هو يا ترى موقف ابن بسام صاحب (الذخيرة) ؟ يبدو لنا من النظر في كتابه المذكور أنه وقف موقفاً وسطاً فلم يتحامل تحامل الفتح بن خاقان على من تحامل عليهم . ولم يدافع دفاع المراكشي صاحب « المعجب » والعماد الكاتب ، على أنه نوه بذكر جماعة من قضاة الأندلس وحكامها الذين ناوأهم وندد من ندد بهم من أعلام الأدب في أواخر عصر المرابطين ، وفي مقدمتهم « آل حمدين » زعماء قرطبة وحكامها . وكان عميدهم أبو عبدالله أحمد بن حمدين وفيه يقول يعني أي ابن بسام « قاضي القضاة بقرطبة وهو فيها يعسوب الإسلام ومدار النقض والإبرام » .

فتنة قرطبة في عصر المرابطين :

لابن حمدين هذا في قلائد العقيان ترجمة حسنة استهلها بقوله « حامي ذمار الدين وقاطع ضرر المعتدين » ، وفي آخر هذه الترجمة أورد ابن خاقان قطعاً من نثر ابن حمدين ، فمن هو ابن حمدين ؟ ومن هم المعتدون الذين استأصلهم القاضي المذكور؟ ليس من المستبعد أنهم قصدوا بهؤلاء المعتدين أو المفسدين بعض عمال المرابطين في إقليم قرطبة وهم الذين ثار عليهم ابن حمدين وآزره أهلها على ذلك .

كانت قرطبة فيما يظهر تعاني ضرباً من الاضطراب السياسي والفوضى الإجتماعية ، من عواملها الضعف الذي طرأ على حكام الأندلس من المرابطين في الثلث الأول من المائة السادسة ، وكان يتقلد منصب القضاء يومئذ في قرطبة ـ وهو من أعظم مناصب الدولة ، بنو رشد ، تقلد القضاء جد ابن رشد الفيلسوف وابوه غير ان والده لم يكن صارماً في عمله فاستعفى . وظلت قرطبة تعاني الفوضى مدة طويلة إلى أن أجمعت كلمة أهلها على ترشيح ابي عبدالله أحمد بن حمدين لمنصب القضاء خلفاً لابن رشد الوالد . وكان حب الامارة والتطلع إلى الحكم يجيش في نفس قاضي البلد الجديد ، وكانت قرطبة على حالة من الاضطراب ساعد ابن حمدين على نيل مبتغاه ، بيد أننا لم نجد في كتاب (القلائد) ولا في (الذخيرة) ما يشفي الغليل من أخبار بني حمدين وعميدهم المذكور فيما يتعلق بمقارعة المفسدين ومناهضة المارقين . والغالب أن عاصفة من السخط على مظالم الحكام ورجال السياسة والقضاء كانت تجتاح إقليم قرطبة ، وقد أسهم في إثارة روح السخط والتذمر عليهم فريق من شعراء الأندلس الفحول الذين عبروا أحسن تعبير عن فساد سيرة أصحاب السلطان في ذلك الحين ، وكان من أشهر هؤلاء الشعراء أبو جعفر ابن البتي الذي سارت أشعاره في هجاء ابن حمدين وغنت بها الركبان وكان الفتح بن خاقان من أنصاره

فدافع عنه وأقذع في سبّ الشاعر المذكور .

ابن حمدين ولسان الدين ابن الخطيب :

لم نجد في « كتاب القلائد » ولا في « الذخيرة » أكثر من المدح والثناء البالغ على القاضي ابن حمدين على أننا وجدنا طرفاً صالحاً من أخباره في كتاب نفيس لأديب قرطبة ووزيرها لسان الدين ابن الخطيب سماه (أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) . وفي هذا الكتاب سرد حسن لسيرة ابن حمدين ووثبته بأهل قرطبة على والى المدينة من قبل المرابطين وبيعته بيعة عامة في الجامع الأعظم سنة ٥٣٩ ، ومن ثم دوَّن الدواوين وجند الجنود ورسم الخطط وخاطب القضاة بالأندلس فاعترفوا ببيعته وتسمى بأمير المسلمين وناصر الدين . ويذكر لسان الدين ابن الخطيب بعد ذلك زحف المرابطين من إشبيلية على قرطبة واضطرار زعيمها ابن حمدين إلى الفرار منها إلى (بطليوس) وذكر أيضاً تعاقب الوقايع بينه وبين خصومه وهم عمال المرابطين حتى استنجد بالإفرنج والروم للزحف على قرطبة ، وهو أمر يؤاخذه عليه التاريخ حيث أسفر هذا التحالف مع الإفرنج عن نتائج وخيمة ، فإن بقايا المرابطين في الأندلس اضطروا من جانبهم الى عقد حلف مع صاحب (قشتالة) إزاء الموحدين الذين عبروا من المغرب إلى الأندلس تحدوهم الرغبة في الجهاد والدفاع عن الديار الأندلسية .

عاش ابن حمدين في السنوات الأخيرة من عمره في ظل صاحبه ابي الحكيم أمير مالقة وفي هذه المدينة مات سنة ٥٤٩ . ولما استولى الموحدون على مالقة نبشوا قبره ، وفي ذلك دليل على ما ذهب إليه لسان الدين ابن الخطيب وأبو جعفر بن البتي الشاعر الآتي ذكره من أن ابن حمدين لم يكن مرضي السيرة ، فأين هذا مما ورد في كتابي « القلائد » و« الذخيرة » وما أضيع الحق في أقوال المؤرخين في كثير من الأحيان .

لا شك ان آل حمدين بيت وجاهة وزعامة بين الأندلسيين ، ولا بد لأمثال هذه البيوت من مادح وقادح ، وما أكثر الشعراء الذين مدحوا آل حمدين ، والمؤرخين الذين نوهوا بهم . وليس عدد من هجاهم من الشعراء هجاء مراً بقليل ومن أجود ما مدحوا به من الشعر قول ابن الجبير من قصيدة :

أقذيتُ عيني بالزمان وأهله حتى نظرت إلى بني حمدين

الوارثين المجد عن آبائهم والحاملين العلم عن « سحنون »

قوم إذا حضروا الندى تميزوا بعلو مرتبة ونور جبين

متزلفين إلى الإله فشأنهم إصلاح دنيا أو إقامة دين

ولابن الجبير هذا ترجمة حسنة في قلائد العقيان دعاه فيها « الوزير الكاتب » وكانت لأبي نصر القيسي الفتح بن خاقان صلة وثيقة بابن الجبير الوزير . وفي ترجمته له أشاد بذكره كثيراً وسماه « شيخ الأوان » قال صاحب القلائد « نزلت عنده في أحدى سفراتي فأولاني كل مستحسن فلما أردت الانصراف أنشدني :

يذكرني نبل الهمام أبي نصر زمان اهتمامي بالقريض وبالشعر

على حين خلّيت اليراعة غاضباً عليها وأخليت الدواة من الحبر

ومالي لا أهدي الملام إليهما وقد رفعا من قدر كل فتى غمر

فلله ما يُسدى ويُلحم طبعه وينثر من شذر وينظم من در ؟

ولله منه همة عربية أبت أن ترى إلا على قمة النسر

ويستفاد من هذ أن الفتح ابن خاقان جمع طرفاً من مادة كتابه أثناء رحلاته ونزوله ضيفاً على جماعة من اعلام الأدب وذوي المكانة في الديار الأندلسية .

أبو جعفر ابن البني - الشاعر الثائر :

وأبو جعفر ابن البني أو البتِّي من أهل مدينة (جيان) خلق في عصر الفتنة بالأندلس ثائراً قبل أن يخلق شاعراً ، وما أشبهه بدعبل الخزاعي في هجوه ومغامراته وجرأته وكثرة اسفاره ورحلاته وقلة استقراره ، ترجم له العماد الكاتب في الخريدة مرتين وأشار إلى مطاعن ابن خاقان فيه وتجريحه له بالتهتك والخلاعة حتى هم الحكام بقتله والفتك به ، ولم يندفع هذا الشاعر الأندلسي المجيد في أهاجيه إلا بعد أن شاهد تلك الثروة الطائلة التي جمعها فريق من رؤساء الأندلس وقضاة قرطبة فكثرت أملاكهم واتسعت مكاسبهم في عهد ملوك الطوائف والمرابطين خصوصاً في أيام علي ابن يوسف بن تاشفين الذي خلف أباه على السلطنة سنة ٤٩٧ وعرف بتنكره لفريق من أعلام الفكر والأدب والفلسفة نزولاً على آراء بعض الرؤساء والوجهاء وأهل الثروة والمياسير ، فكان لا يقطع أمراً إلا بعد التشاور معهم والرجوع إلى آرائهم في جميع الأمور ، عند ذلك لم يجد ابن البتي الشاعر بداً من الثورة التي عبر عنها بأهاجيه وأشعاره الساخرة من خصومه ومن ذلك هجاؤه لأولئك القضاة والحكام ناسبا إليهم الرياء في بعض أشعاره واقتناء الثروات تحت ستار من التقوى وإقامة حدود الشرع .

أهلَ الرياء لبستم ناموسكم	كالذئب أدلج في الظلام القاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك	وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب	وباصبغ صبغت لكم في العالم

قال عبد الواحد المراكشي[1] وإنما عرّض أبو جعفر في هذه الأبيات

(١) المعجب (١١٠) .

بالقاضي ابي عبدالله محمد بن حمدين قاضي قرطبة ، وقد هجاه بأبيات أولها :

أدجال هذا أوان الخروج ويا شمس لوحي من المغرب
يريد ابن حمدين أن يُجتدى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرفَ حك استه ليثبت دعواه في (تغلب)

ومن جيد شعره قوله وقد كان يريد الشرق ولكن الريح صرفت مركبهم وأعادته إلى مرساه :

أقول وقد صدرنا بعد يوم أشوق بالسفينة أم نزاع
إذا طارت بنا حامت عليكم كأن قلوبنا فيها شراع[1]

لخص العماد الكاتب ترجمة ابن البتي عن (قلائد العقيان) ومما يدل على منزلة هذا الشاعر المجيد ومكانته في نفوس أدباء الأندلس وغيرهم أن العماد أعاد ترجمته مرة أخرى نقلاً عن مآخذ جديدة منها ديوان أبي الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي صاحب « الحديقة » ومنها كتاب « الجنان » و« رياض الأذهان » لابن الزبير الأسواني . ويستفاد من هذه الترجمة أن ابن البتي من الشعراء الذين عني أبو الصلت بهم واكبرهم ، وكان صديقاً حميماً له مدحه بأبيات تعد من محاسن شعر ابي الصلت . ومما قاله العماد في هذه الترجمة : أبو جعفر عبد الولي ابن البتي الكاتب معروف من أهل الفضل ، ولم يقع إليّ شيء من شعره لكنني قرأت في ديوان أبي الصلت أمية الأندلسي أنه كتب إلى عبد الولي مجاوباً عن قصيدة خاطبه بها ويصفه بكثرة الأسفار منها :

---

(١) نسبت هذه الأبيات في كتاب الحماسة لمؤلفه أبي الحجاج يوسف بن محمد البياسي الأندلسي إلى أحمد بن الحسن بن خلف المعروف بابن البناء وكان قد أخرجه صاحب (ميوزقة) إلى البحر فساروا يومهم فهبت عليهم الريح فردتهم ، وعدد الأبيات في هذه الرواية أربعة أنظر وفيات الأعيان (٢/٤١٥) .

مجدك علوي أبــا جعفــر والشهب لا تعرف سكنى القرار
أنست بالبيد وطول السـرى فالناس أهل لك والأرض دار
إن سرت كنت الشمس أو لم تسر فأنـت كالقطب عليـك المدار

قال العماد : وطالعت كتاب « الجنان » لابن الزبير وذكر أنه - يعني ابن البتي - خليع العذار قليل المحاسبة في اللهو والاعتذار ، لا يبالي أنى ذهب ولا بمن عذر أو عتب ، له أهاجٍ أرغمت المعاطسُ أخرست المنافس ، ومن شعره :

صدني عن حــلاوة التشييع اجتنابــي مرارة التـوديـــع
لم يقم إنس ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميــع

ومن أصحاب ابن البتي شاعر أندلسي آخر هجّاء يقال له (ابن البكي) أحرقه الإفرنج في (بلنسية) لما تغلبوا عليها سنة ٤٨٨ .

رأي ابن دحية :

ويستفاد من تصفح كتاب « المطرب من أشعار أهل المغرب » لأبن دحية أن صاحبه يقلد ابن خاقان في أساليبه الكتابية . نقل عنه أكثر من مـرة ووصفه بالوزير وقد حذا حذوه في ثلب الشاعر المجيد ابن البني[١] وإن لم تبلغ لهجته من حيث حدتها لهجة ابن خاقان ، ومما قاله ابن دحية في ترجمة هذا الشاعر : « خبيث اللسان كان مدة حياته خائفاً مترقباً من السلطان لما شهد به الناس عليه من الزندقة والإلحاد وإنكار حشر الأجساد » وأشار صاحب (المطرب) بعد ذلك إلى انكبابه على كتب ابن سينا الفيلسوف .

---

(١) اختلطت ، في كتاب المطرب لابن دحية ترجمة ابن البني (بالنون) بترجمة ابن البتي (بالتاء) وهو شاعر آخر ولكن فحوى الترجمتين متشابه وإن اختلفت الأسماء ، ولا يخلو ذلك من لبس واختلاط ، والأمر يحتاج إلى مزيد من التحقيق .

طبقة مختارة من الشعراء :

من مقاصدنا في هذه الدراسة ، بعد التعريف بأصل الكتاب ثم بمآخذ مصنفه ، تعريف بطبقة وقع عليها الاختيار من شعراء المغرب وصقلية والأندلس كما ورد ذكرهم وشعرهم في هذا الجزء من كتاب الخريدة وفي بعض المآخذ الأخرى . ولا بد لي من القول أنني عنيت في هذا الفصل بتعريف من لم يعرف عند جمهور المتأدبين من هؤلاء الشعراء أو لم يرو شعره في كثير من كتب التاريخ والطبقات وذلك استناداً إلى ما ورد في هذا الكتاب على الأكثر . ولم أعرج في هذا الفصل على ذكر المشاهير من فحول شعراء الأندلس وصقلية والمغرب فلا محل في هذا البحث للتعريف بمن نشرت مجاميعهم أو دواوينهم الشعرية او مصنفاتهم في الأدب كالشاعرين ابن حمديس الصقلي وابن خفاجة الأندلسي وإنما اقتصرنا على طبقة مغمورة غالباً استجدنا شعرهم وحمدنا فنهم أوردناهم على الصورة الآتية :

١ ـ محمد بن حمديس :

أبوه عبد الجبار بن حمديس الشاعر الصقلي صاحب الديوان . قال العماد صاحب الخريدة ذكر ابن شرف في المختار أنه أشعر من والده عبد الجبار . ويلاحظ أن العماد أورده بين شعراء المغرب الأوسط ووصفه بحسن النمط في شعره واكتفى بإثبات أبيات قليلة له ، وقال أيضاً : وجدته في ديوان أبي الصلت أمية الأندلسي ثم أورد بعض أشعاره نقلاً عن الديوان المذكور . وقال بعد ذلك : قرأت في مجموع لابن حمديس قصيدة في المعتمد بن عباد لما أُخرج ثم أورد القصيدة ، وقال أيضا : أُنشدت له ببغداد . أما فيما يتعلق بابن حمديس الصقلي الوالد واسمه عبد الجبار فقد جاء في كتاب الحديقة لأمية بن أبي الصلت عنه ما يأتي : « جيد السبك حسن الأخذ » ثم أورد صاحب الحديقة من مآخذه وسرقاته التي زاد بها على معنى الشعر المسروق من الشعراء الجاهليين والإسلاميين . ويلاحظ أن صاحب الخريدة أكثرَ من إثبات شعره . ولذلك يحسن

معارضة النسخة المنشورة من ديوان ابن حمديس بما أورده العماد من شعره في الخريدة .

٢ ـ الحصري الأعمى :

أبو الحسن علي بن عبدالله ـ وفي الذخيرة عبد الغني ـ صاحب مصنفات وتأليفات وإحسان في النظم أورد له أبياتاً في هجاء أبي العرب الصقلي وأخرى في رثاء المعتضد أبي المعتمد واسمه عبّاد . هذا وقد توسع ابن بسام في ترجمة الحصري وأورد جملة كافية من نظمه ونثره وأثنى على أدبه ، وهو من مشايخه الذين أدركهم وروى عنهم . على أنه نسبه إلى القيروان قائلا : « طرأ على الأندلس منتصف المائة الخامسة بعد خراب وطنه في القيروان » هذا وفي شعر الحصري ما يعزز قول ابن بسام من هذه الناحية إذ طالما استوحى الحصري كارثة القيروان في أشعاره . ولا تخلو ترجمة ابن بسام له من غمز في العقيدة .

ترجم للحصري هذا جماعة من أصحاب الطبقات والمعجمات التاريخية وفي كتاب وفيات الأعيان[١] ترجمة ضافية له نقل فيها ما قاله ابن بسّام فيه ومن ذلك قوله : « لما خلع ملوك الطوائف بأفقنا اشتملت عليه مدينة طنجة » ثم قال ابن خلكان وهذا ابو الحسن ابن خالة ابي اسحق الحصري[٢] صاحب « زهرة الآداب » ، وقال أيضاً وممن ذكره ابن بشكوال في كتاب (الصلة) والحميدي ايضاً قائلا : كان عالماً بالقراءات وطرقها أقرأ الناس للقرآن الكريم بسبتة وله ديوان شعر ، ومن قصائده السائرة القصيدة التي أولها :

يا ليل الصب متى غده　　أقيام الساعة موعده

وجرت بينه وهو في طنجة وبين المعتمد بن عباد مراسلة ، ونجد

---

(١) الوفيات (١/٤٣١ ـ ٤٣٢) .

(٢) نجد لأبي اسحق الحصري القيرواني هذا ترجمة في الوفيات (١/١٣) .

للحصري الضرير ترجمة في كتابه المطرب لأبن دحية[1] وهو من مواليد القيروان وتوفي في طنجة سنة ٤٨٨ .

٣ - ابن الشاطر السرقسطي :

في كتاب المطرب لأبن دحية[2] « ابن شاطر » ترجم له ترجمة حسنة وكان الحافظ ابن دحية يروي شعره ودعاه : « الفقيه الأجل » كان نسيج وحده وشاعر بلده . تنسَّك هذا الرجل في آخر عمره قال الصدقي في الصلة : « كان ذا فضل وأدب وشعره يروى ، ومن شعره :

تقول تنبه ويك من غفوة الصبا فقد دَبّ صبح الشيب في غسق الشعر
فقلت لها كفى عن العتب واعلمي بأن ألذّ النومِ إغفاءة الفجر

٤ - عبد الجبار المعروف بالمتنبي :

قال العماد ،عاش بعد سنة خمسمائة فإنه ذكر علي بن يوسف بن تاشفين وهو امير المسلمين - وكانت ولايته عند وفاة أبيه سنة ٤٩٥ - في أرجوزته المحتوية على فنون من العلوم والمحيطة بتاريخ الدول . ومن أرجوزته المنظومة في التاريخ :

لما رأى أعلامُ أهلِ قرطبة أن الأمور عندهم مضطربة

إلى أبيات أخرى من هذه الأرجوزة .

رأي صاحب الذخيرة في أرجوزة المتنبي :

هذا ما قاله العماد . وقد وجدنا لهذا الشاعر الأندلسي المعروف

(١) المطرب (١٦) .
(٢) المصدر المذكور (٨٤ ، ١٢٢) .

عندهم بالمتنبي سيرة ضافية في الذخيرة لابن بسّام قائلاً هو من أهل جزيرة « شقر » ولم يعرف ابن بسام هذه الجزيرة بيد أن الحميري الأندلسي وصفها في (الروض العطار) وصفاً شائقاً . وفي حنين شعراء الأندلس إليها أشعار تجدها في « الروض المعطار » . وسيمر بنا وصف هذه الجزيرة في بعض الفصول الآتية .

هذا ويقول ابن بسّام في الشاعر عبد الجبار : « أبرع أهل زمانه أدباً وأعجبهم مذهباً وأكثرهم تفنناً في العلوم » ويلاحظ أن ابن بسام كالعماد الأصبهاني استحسن أرجوزة عبد الجبار التي نظمها في الدول الإسلامية وأثبتها على طولها في كتاب « الذخيرة » .

وعقد المقري صاحب نفح الطيب فصلاً سمى فيه أعلام الأندلس المؤلفين في مختلف الفنون ، وفي هذا الباب يقول : « وليحي ابن الغزال في تاريخ الفتنة منظومات كما صنع أيضاً بعده أبو طالب المتنبي من جزيرة شقر في التاريخ » .

٥ ـ ابن شرف :

هو أبو عبدالله محمد بن أبي سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني قال العماد كان في عصر ابن رشيق . طالعت مصنف محمد بن شرف الموسوم بـ (أبكار الأفكار) وهو كتاب أكثر صاحب الخريدة من النقل عنه فيما كتبه عن شعراء الأندلس والمغرب. وهذا الكتاب من أشهر مؤلفاته ضمنه مختارات من الشعر والنثر رجع إليها كثير من المؤلفين في فنون الأدب بعد عصر مؤلفه . وله كتاب « أعلام الكلام » . ومن كتاب أبكار الأفكار نسخة في خزانة مكتبة (الرباط) كما يدل على ذلك ثبت المكتبة المذكورة .

مقامة أدبية :

لابن شرف رسالة أو مقامة أدبية نحا فيها نحو الحريري في بعض

مقاماته وتناول بالنقد جمهرة من الشعراء جاهليين وإسلاميين على وجه يستفاد منه علو كعبه في الأدب وطول باعه في النقد . وقد نشرت هذه المقامة ١٣٣١ في دمشق ضمن مجموع موسوم بـ (رسائل البلغاء) ونشرت في القاهرة أيضاً بعد ذلك . وإياها قصد ابن بسام في قوله : « ولابن شرف مقامات عارض فيها البديع ، منها مقامة فيها بعض طول ، ولكنه غير مملول ، آخذة بطرف مستطرف من أخبار الأدباء ، وذكر الشعر والشعراء » هذا ما قاله ابن بسام ثم أورد نبذة من هذه المقامة في الذخيرة .

نشأ ابن شرف بالقيروان في عصر ازدهارها وسكن المهدية ورحل إلى صقلية هو ومعاصره ابن رشيق واجتاز من صقلية إلى الأندلس وأقام في كنف بني عباد وغيرهم من أمراء الأندلس في إشبيلية وغيرها وكانت وفاته سنة ٤٦٠ في الديار الأندلسية . وله ترجمة ضافية في قلائد العقيان وأخرى في الخريدة . ويلاحظ أن هذا الشاعر استوحى في قدر كبير من شعره حوادث القيروان وخرابها في منتصف المائة الخامسة وهجرة من هاجر من أهلها إلى صقلية والأندلس[١] والمغرب على أسوأ حالة . ونجد في تضاعيف أخبار ابن شرف في الأندلس ما يدل على اعتداده بأدبه[٢] ولا يخلو أدبه وشعره خاصة من نزعة فلسفية .

الصفدي وابن شرف :

يعد الصفدي ابن شرف من فحول شعراء العرب وأعيان الأدباء ومما قاله في ترجمته « كان أعور له تصانيف منها (أبكار الأفكار) كتاب حسن في الأدب يشتمل على نظم ونثر . وقيل إن « شرف » اسم أم أحمد جد ابن شرف فعلى هذا لا ينصرف وقيل اسم ابيه فينصرف ، روى ابن شرف عن القابسي » ثم تحدث الصفدي[٣] عما دار بينه وبين ابن رشيق من

---

(١) أنظر عن شعر ابن شرف في هذا المعنى القسم الأول من المجلد الأول من الذخيرة

(٢) المصدر المذكور .

(٣) الوافي بالوفيات (٩٧/٣) .

مهاجاة وعداوة كما يجري في العادة بين المتعاصرين . والواقع أنها عداوة ومهاجاة تحدث عنها كل من عني بترجمة هذين الأديبين من المؤرخين وأصحاب الطبقات . ويلاحظ أن ابن رشيق أكثر من تأليف الرسائل في هجو صاحبه والتشنيع عليه وذكر أغلاطه . من ذلك رسالة سماها (ساجور الكلب) وأخرى سماها (قطع الأنفاس) وثالثة دعاها (رفع الإشكال ودفع المحال) إلى غير ذلك . ويلاحظ أيضاً أن هذه الرسائل المجردة في معارضة ابن شرف مفقودة هذا اليوم بيد أن الصفدي قال : « وقفت على هذه المصنفات والرسائل جميعها فوجدتها تدل على تحريه في الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبحره في النقد فهل ضاعت هذه الرسائل التي اطلع عليها الصفدي من بعد عصره لا نظن ذلك ، ولهذا نهيب بالباحثين عن تراثنا العربي القديم من المخطوطات في مصر والمغرب والشام ان يبذلوا جهدهم في التنقيب عنها في مظانها من دور الكتب الغنية بالمخطوطات . وعلى كل حال تدل هذه الرسائل على شدة ما كان يعانيه ابن رشيق من معارضة خصمه الألد . هذا وقد نقل الصفدي بعد ذلك كلمة لأبن رشيق عن أسلوب ابن شرف في الإنشاد والإنشاء ومن أحسن ما أورده له قوله :

والكأس كاسية القميص كأنها   لوناً وقدراً معصم مخضوب
مني إليه ومن يديه إلى يدي   فالشمس تطلع بيننا وتغيب

والخلاصة يبدو لنا أن ابن شرف ملك إعجاب الصفدي فهو في رأيه من فحول الشعراء .

٦ - ابن بقي :

في نسخة القلائد المطبوعة ابن « تقي » وهو غلط . وقال القاضي ابن خلكان في ضبط هذه الكلمة « بقي بفتح الباء الموحدة وكسر القاف وتشديد الياء » ولكن المقري في نفح الطيب قال وهو يذكر هذا الشاعر « بقي على وزن علي » خلافاً للضبط الذي ورد في كتاب وفيات الأعيان .

وابن خلكان كما لا يخفى معروف بدقته في ضبط الألفاظ . بيد أن المقري مصنف النفح اندلسي الأصل خبير بتاريخ الأندلس وإن كان متأخراً عن طبقة القاضي ابن خلكان بمئات من السنين وعلى كل حال فإن ضبط هذه الكلمة يفتقر إلى مزيد من التحقيق .

قال العماد هو أبو بكر يحي بن بقي . أورده عثمان بن بشرون المهدوي في كتابه المختار وأثنى على شاعريته . وجل شعره في التوشيح . وله ما ينيف على ثلاثة آلاف موشحة ومثلها قصائد ومقطعات . وذكره صاحب قلائد العقيان وحكى أنه بلي في الزمان بالحدثان ، ومن الحظ بالحرمان والحق أن صاحب القلائد نوه بشاعرية ابن بقي أكثر من ابن بشرون ، ترجم له مرتين مرة في القلائد وأخرى في المطمح . وفي هذه الترجمة ما يشير إلى أنه مني بفقد الطمأنينة والاستقرار .

وفيما وصل إلينا من شعر الشاعر ابن بقي كثير من مظاهر التبرم والشكوى من الإجحاف بحقه أو من كساد سوق الشعر والأدب في زمانه ومكانه ولذلك رأيناه يحدث نفسه بالخروج من الأندلس إلى الجزيرة العربية أو إلى العراق والشام . ومما يدل على ذلك قوله :

ولي همم ستقذف بي بلاداً ... نأت أما العراق أو الشآما
وألحق بالأعاريب اعتـــلاءاً ... بهم وأجيـد مدحهم اهتماما
لكيما تحمل الركبان شعري ... بوادي الشيح أو وادي الخزامى

ضيعة الأدب

ومن لطائفه في هذا المعنى وهو مما ورد في قلائد العقيان ونقله في الخريدة :

أكل بني الآداب مثلي ضائع ... فاجعل ظلمي أسوةً في المظالم
ستبكي قوافي الشعر ملء جفونها ... على عربي ضاع بين الأعاجم

ذم أهل المغرب

وله من قصيدة يشكو أهل المغرب ، وقد ذم عندهم مثواه وصفرت من نائلهم يداه .

أقمت فيكم على الاقتار والعدم ... لو كنت حراً أبيّ النفس لم أُقم
وظَلْت ابلى بكم عذراً لعلكم ... تستيقظون وقد نمتم عن الكرم
لا رزق لي عندكم لكن سأطلبه ... في الأرض إن كانت الأرزاق بالقسم
أنا أمرؤ إن نبت بي أرض أندلس ... جئت العراق فقامت لي على قدم
أوغلت في المغرب الأقصى فأعجزني
نهل الرغائب حتى أبت بالندم
وساقط نال من عرضي فقلت له ... إليك عني فليس السب من شيمي
أعرضت عنه ولو أني عرضت له ... سقيته حمة الأفعى من الكلم

ومن شعره السائر :

عاطيته والليل يسحب ذيله ... صهباء كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضم الكمى لسيفه ... وذؤ ابتاه حمائل في عاتقي
باعدته عن أضلع تشتاقه ... كي لا ينام على فراش خانق

ابن بقي وفن الموشح :

ورد ذكر ابن بقيّ في الفصل الذي عقده ابن خلدون للبحث في

تاريخ فن الموشح فقال « ثم جاءت الحلبة التي كانت في مدة الملثمين فظهرت لهم البدايع ، وفرسان حلبتهم الأعمى التطيلي ثم يحي بن بقي » وذكر الأعلم البطليوسي أنه سمع ابن زهر يقول ما حسدت قط وشّاحاً على قول إلا ابن بقي ، وذكره الحافظ ابن دحية في « المطرب من أشعار أهل المغرب » . وترجم له وهو من شيوخه قائلا انفرد بالموشحات وهي من الفنون التي أغرب فيها أهل المغرب وظهروا بها على أهل المشرق .

ابن بقي وابن بسام :

ويبدو لنا أن ابن بسام لم يكن يكبرُ ابن بقيّ إكبار ابن خاقان والعماد الكاتب وابن دحية له فدعاه وهو يورد بيتا له « بعض فتيان عصرنا »[١] وابن بسام صاحب الذخيرة لا يخلو من الزهو والاعتداد بنفسه والاستخفاف بجماعة من كبار شعراء العصر الذي عاش فيه .

٧ ـ الشاعر الابيض أو الاهيب الشهيد :

هذا الشاعر الذي نحن بصدده وهو أحمد الملقب الأبيض ـ لم يكن شاعراً فحلا فقط بل هو فيما نرى بطل من أبطال التاريخ في الأندلس . وكيف لا يكون بطلا من تبلغ فيه الجرأة أن يقول للأمير الذي قتله في مجلسه وعلى فراشه ـ وقد سأله عن سبب هجائه له ـ لم أر أحق منك بهجائي . وكان عليك أن تهجو نفسك وتندد بمساويك معي فلما سمعه الأمير جن جنونه وأمر بقتله . رحمك الله يا شهيد الأندلس ما أجل بَذْلك وما أعظم هذه الرجولة فيك .

---

(١) القسم الأول من المجلد الثاني من كتاب الذخيرة .

هجاء أمير قرطبة

اكتفى العماد الكاتب من شعر الشاعر الأبيض بايراد أبيات له هجا بها أبا محمد بن الزبير أمير قرطبة وهي :

يا سائل عن زبير اين مسكنه   هيهات تطلب شمساً مالها وضح
لا تطلبن زبيرا في مساكنه   واسأل «عرابة» عنه حيث يصطبح
نشوان يكرع في . . . وفي قدح   والملك تحت جران العود مطرح

أرخ العماد وفاة هذا الشاعر سنة ٥٣٠ وقال بعد ذلك وهذا الزبير قتل في سنة ٥٣٧ ، استشهد في حروب الفرنج في موضع يقال له « وادي الدروع »

سخرية لاذعة

ولأحمد بن محمد الأنصاري المعروف بالأبيض هذا أبيات سخر فيها سخرية لاذعة من رجل يحدث نفسه بالخلافة ، وردت هذه الأبيات في نفح الطيب للمقري[١] .

أمير المؤمنين نداء شيخ   أفادك من نصائحه اللطيفة
تحفظ أن يكون الجذع يوماً   سريرا من أسرتك المنيفة
أفكر فيك مصلوباً فأبكي   وتضحكني أمانيك السخيفة

همم الرجال

وللشاعر الأبيض قصة تدل على شرف نفس وعلو همة[٢] وحب للتفوق على الأقران وذلك أنه سئل بمحضر من يخجل منه عن مسألة لغوية

(١) التفح ٢ : ٤٢٣ .
(٢) وردت هذه القصة في نفح الطيب (٢/٢٨٦) .

فعجز ، ومن ثم اقسم ان يقيد رجليه بقيد ولا ينزعه حتى يحفظ « الغريب المصنف » فاتفق أن دخلت عليه أمه على حالته تلك فارتاعت فقال :

ريعت عجوزي أن رأتني لابسا حلق الحديد ومثل ذاك يروع
قالت جننت فقلت بل هي همة هي عنصر العلياء والينبوع
سن الفرزدقُ سنة فتبعتها إني لما سنّ الرجال تبوع

الشاعر ووالي قرطبة

قال المقري كان الأبيض شاعراً وشّاحاً طاحِ دمه على يد الزبير أمير قرطبة لما هجاه بقوله :

عكف الزبير على الضلالة جاهداً ووزيره المشهور كلب النار
ما زال يأخذ سجدة من سجدة بين الكؤوس ورنة الأوتار
فإذا اعتراه السّهو سبح خلفه صوت القيان ورنة المزمار

ولما بلغ الزبير ذلك قال له : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : « إني لم أرَ أحق بالهجو منك ولو علمت ما أنتَ عليه من المخازي لهجوت نفسك أيضاً ولم تكلها إلى أحد فأمر بقتله » هذا وقد أورد المقري بعد ذلك أشعاراً أخرى له نقلاً عن كتاب « فرحة الأندلس » وعد ابن خلدون في مقدمته هذا الأبيض من الوشاحين المطبوعين .

٨ ـ الاسعد بن بليطة :

أبو القاسم الأسعد بن ابراهيم شاعر المعتصم بن صُمادح الأندلسي . قال العماد « ذكر ابن بشرون أنه شاعر الأندلس وأديبها ومصقعها وخطيبها سمح البديهة والروية ، لم يمت حتى نيف على

التسعين » أورد لهُ قصائد عدة . ويستفاد مما جاء في الخريدة أن ابن بشرون مصنف (المختار) أشاد بشاعرية ابن بِليطة وجودة منظومه وقال معظم شعره في بني صمادح ملوك « المَرِيّة » . وضمن كتابه شطراً غير قليل من شعره غير أنه ، فيما نرى ، وسط في طبقته . هذا ولم يفرد له ابن خلكان ترجمة بيد أنه ذكره في ترجمة المعتصم بن صُمادح[1] صاحب الصُمادحية وبجاية والمرية من بلاد الأندلس وكان ـ أي ابن صمادح ـ رحب الغناء جزيل العطاء حليماً عن الدماء لزمه جماعة من فحول الشعراء كأبي عبدالله ابن الحداد وابن عمار الأندلسي وقصده أيضاً من شعراء الأندلس أبو القاسم الأسعد بن بليطة وهو من فحول شعرائهم ومدحه بقصيدته الطائية التي أولها :

بِرامةَ ريم زارني بعد ما شطا   تقنصتُه في الحلم بالشط فاشتطا

وصف الديك

ومن هذه القصيدة في وصف الديك :

إذا صاح أصغى سمعُه لأذانه   وبادر ضرباً في قوادمه الأبطا
كأن أنو شروان أعلاه تاجه   وناطت عليه كف مارية القرطا

قال صاحب الوفيات بعد إيراد جانب من هذه القصيدة : « هي طويلة مقدار تسعين بيتاً أحسن فيها ناظمها » . وضبط ابن خلكان كلمة بليطة بقوله : « وبليطة والد أبي القاسم الأسعد الشاعر المذكور بكسر الباء الموحدة واللام المشددة ولا أعرف معناه وهي بلغة أعاجم الأندلس » ويلاحظ أن ابن خلكان اعتمد في ترجمته للمعتصم بن صمادح على كتاب ألفه محمد بن أيوب الأنصاري للسلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٨

---

(١) الوفيات (٢/٤٥) .

ترجم فيه للأمير ابن صمادح المذكور . ويبدو لمن يتصفح كتاب الوفيات لابن خلكان أنه يتحدث كثيراً عن كتاب الأنصاري المذكور الذي صنفه لصلاح الدين في شعراء الأندلس وشعرهم في أواخر المائة السادسة .

ومما يحز في النفس ألماً أن يضيع هذا الكتاب وأمثاله فيما ضاع من التراث العربي القيم الذي اشتملت عليه خزائن الكتب المصرية . ولنا أن ندعو المعنيين بالبحث عن المخطوطات النادرة إلى بذل مزيد من الجهد في التنقيب عن هذا الكتاب وأمثاله من المصنفات القيمة .

حديث للقاضي الفاضل عن شعراء المغرب :

ومما يحسن إضافته إلى الحديث السابق عن المعتصم بن صمادح وشعرائه ما جاء في ترجمة « ابن الحداد الشاعر » من الخريدة فإن صاحبها العماد الكاتب يقول « أبو عبدالله محمد المعروف بابن الحداد من شعراء المغرب المتأخرين سألت القاضي الفاضل عنه فقال ـ وقوله حجة[1] ـ كان في الصمادحية وهو أديب فاضل وله القصيدتان الهمزيتان ، وكل واحدة أكثر من مائة بيت ، وليس في المغرب أشعر منه ، له مجموع في ابن صمادح » ومن اشهر قصائده القصيدة التي اولها :

لعلك بالوادي المقدس شاطىء　　　وكالعنبر الهندي ما أنت واطىء

هذا وفيما ورد في الخريدة عن ابن صمادح وابن الحداد الشاعر مثال من الأمثلة الكثيرة التي يتحدث بها العماد عن القاضي المذكور ودليل بالغ على خبرة القاضي بشؤون الأدب والأدباء .

٩ ـ ابن الحناط القرطبي :

هو في الخريدة ابن الخيّاط وفي الذخيرة ابن الحنّاط لا الخياط ، أبو

---

(١) هذه الجملة المعترضة من صلب كلام صاحب الخريدة في رئيسه القاضي المذكور .

عبدالله محمد المعروف بابن الحنّاط قال العماد « له رسالة طردية وصف بها الظباء وصيدها وهي طويلة » . وجاء في الذخيرة لابن بسّام « زعيم من زعماء العصر ورئيس من رؤساء النظم والنثر » . ذكره ابن حيان فقال : « في سنة ٤٣٧ نُعي إلينا أبو عبدالله محمد بن الحناط الشاعر الضرير القرطبي بقيةُ الأدباء النحارير ، هلك في الجزيرة الخضراء في كنف الأمير محمد بن القاسم وهلك إثره ابنه الذي لم يكن له سواه بمالقة فاجتثّ أصله » إلى آخر ما نقل عن ابن حيّان . ويستفاد منه أن ابن الحناط كان من الفلاسفة وأنه كفّ بصره من كثرة المطالعة ، وأنه نظر في الطب بعد ذلك فعُرف به وكان ابنه يصف له مَياهَ الناس فيهتدي منها إلى ما لا يهتدي إليه البصير ، وتَطَبّبَ عنده الملوك والأعيان والخاصة وله أخبار كثيرة .

١٠ - شاعر يهجو أهل شقر :

هو على ما جاء في الخريدة أبو عامر محمد بن الأصيلي له رسالة كتب بها إلى أبي محمد بن أبي الفرج يعرفه ما لقيه من أهل جزيرة شقر[١] ويذمهم ، صدّرها بهذه المقطوعة :

كتبت إليك أوان الخروج حزيناً مهيناً إلى دانيهْ[٢]

---

(١) شقر جزيرة بالأندلس قريبة من شاطبة كثيرة الأشجار والثمار والأنهار وبها جامع ومساجد وأسواق لها ذكر في دواوين شعراء الأندلس من ذلك قصيدة لابن خفاجة ، وهو من مواليدها ، يذكرها ويتشوق إليها وأول القصيدة :

بين شقر وملتقى نهريها حيث ألقت بها الأماني عصاها
وتغني المكاء في شاطئيها يستخف النهي فحلت حباها
عيشة أقبلت يشهى جناها وارف ظلها لذيذ كراها
ثم ولت كأنها لم تكن تلبث إلا عشية او ضحاها
وشباب قد فات إلا تناسيه ونفس لم يبق إلا شجاها

(٢) دانية مدينة بشرقي الأندلس عامرة على البحر ذكرها الحميري في الروض =

واسـأل ربي ألّا أعـود إلى أرضكم مـرة ثـانيـهْ
حللت الجزيرة سحقـاً لها كـأنـي حللـت بسـردانيـةّ
منعت الدخول إلى أرضها فدرت كما دارت السـانيهْ
وبتُّ ثـلاثاً بهـا طـاوياً قـراي همـومـي وأحـزانيـهْ
فقل لابن ذي النون حتى متى تُولّي الحصون بني الـزانيهْ
وإن فـعـال بـني آدم لتبقـى وأشخاصهـم فانيـهْ

وتلى هذه الأبيات قطعة من النثر جاء فيها « قدمت كتابك إلى الوزيرين الجليلين أبي جابر وأبي طريف » وفي الرسالة ذم لهذين الوزيرين ولوزراء آخرين وختمها بأبيات منها :

قل لابن ذي النون الرئيس الذي ليس له شيء من البخت
لا جَبَـر الله بني جـابـر وزادهم مقتـاً عـلى مقت
يحسـد فرعـون على قـوله وهــذه الأنهار مــن تحـتي
إن جئته في حاجة يعتذر عـذر يهـود غـدوة السبت
هيهات لا حُرّ ولا حُـرة من باب إقليس إلى البرت

١١ ـ ابن سارة شاعر الاندلس المبدع :

هو أبو محمد عبدالله بن سارة الإشبيلي من أشعر شعراء الأندلس في صدر المائة السادسة . ومن رأينا بعد التأمل فيما ورد عنه في كتب الطبقات والتاريخ وقراءة قطع من شعره أن ابن سارة المذكور شاعر مجدد مبتكر غير

=المعطار قال « ومنها يخرج الأسطول الى الغزو واليها ينسب أبو عمر الداني المقري المشهور له تواليف في القراءات توفي سنة ٤٤٤ » .

مقلد بل هو من شعراء الأمة العربية ومن أمراء الأدب والبيان وما أقل نظراءه بين شعرائنا وتصح مقارنته من حيث تجديده وابتكاره وجودة أوصافه وتشبيهاته بابن المعتز وابن الرومي وكشاجم من شعراء المشرق، وبابن خفاجة من شعراء الأندلس وقد ملك أعجاب العماد الكاتب على الظاهر واستجاد اشعاره فأثبت له في الخريدة طائفة لا يستهان بها من أجود المنظوم ومما قال عنه : « ذكره لي في العراق الفقيه أبو علي الحسن بن صالح المالقي وأنشد لابن سارة في الوراقة » .

أما الوراقة فهي أنكد حرفة	أغصانها وثمارها الحرمانُ
شبهت صاحبها بإبرة خائط	تكسو العراة وجسمها عريانُ[1]

ثم قال العماد بعد ذلك : طالعت حديقة ابن أبي الصلت فوجدت البيتين من شعره وأورد له بيتين آخرين .

ولابن سارة وقد جلس إلى جانبه شخص حسن الصورة ثم قام وأعقبه رجل اسود :

مضت جنة المأوى وجاءت جهنم	وأصبحت أشقى بعدما كنت أنعم
وما هي إلا الشمس حان غروبها	وأعقبها قطع من الليل مظلم

---

(١) جاء في كتاب ازهار الرياض للمقري (١١٥/٣) في ذم الكتابة : أن فقيها (من رندة) كان كثيرا ما يتمثل بهذين البيتين .

أرى الكساد بدا في صنعة الكتبة	فما يباع بها شقص ولا عتبه
تباً لصنعة قوم رأسمالهم	حبر تبدده في صفحة قصبه
ولأبي بكر النبلي من نبله « حصن »	في شرق الأندلس توفي سنة ٥٦٠
قالوا الكتابة أعلى خطة عرفت	قلت الحجامة أعلى عند أقوام
لا تحسبوا المجد في طرس وفي قلم	المجد في صوفة أو مبضع دام

هذا بعض ما أورده العماد الكاتب من شعر هذا الشاعر المُجيد ثم أشار إلى ترجمة الفتح صاحب قلائد العقيان له الذي وصف ابن سارة بأنه : « نادرة الدهر وزهرة الأيام ، مهيب الهيئة وقورها طيب النفس صبورها » . ويلاحظ أن صاحب القلائد ترجم لابن سارة ترجمة ضافية أورد فيها جملة صالحة من شعره ودعاه « الأستاذ » فهو من شعراء عصره وأشار إلى أنه من جملة الشعراء المجدودين المحرومين وأنه يعيش في عزلة .

الفراء البالية في الأدب العربي :

عني الشعراء كثيراً بوصف الفراء البالية والملابس الخلقة ومن أحسن ما قرأناه في هذا الباب ، وقد أورده العماد في الخريدة ، قول ابن سارة في فروة خليقة[1] .

أودى بذات يدي ذماء فريوة	كفؤاد عروة في الضنا والرقة
يتجشم الفـرّاء في تـرقيعهـا	بعد المشقة في قريب الشقة
إن قلت باسم الله عند لباسها	قرأت على إذا السماء انشقت

البزة الشعثة :

ومن شعراء الخريدة الحسين بن داوود البشنوي من أهل الجزيرة ، قال العماد له ديوان كبير وشعر كثير ومن شعره قوله يذكر شعث بزته :

على الحر ضاقت في البلاد المناهج	وكلّ على الدنيا حريص ولاهج
ولا عيب فينا غير ان جبابنا	خلاطية ما دبجتها المناسج

---

(١) أورد الفتح ابن خاقان هذه الأبيات لابن سارة بزيادة بيت رابع مع اختلاف في بعض الألفاظ .

يعني أن بعض جبابهم من لبّاد غير منسوج . وهذا الشاعـر البشنوي من جزيرة ابن عمر في المشرق وليس من الجزيرة الخضراء .

طيلسان ابن حرب :

هذه الطيلسان الخلق يضرب به المثل بين الأدباء والشعراء فاذا كانت البزة خلقة شبهت بطيلسان ابن حرب وهو أحمد بن حرب بن أخ يزيد المهلبي أعطى أبا علي إسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه البصري طيلساناً خليقاً فاستوحى الشاعر هذا الطيلسان الخلق بمقطعات عدة طريفة تناقلتها الرواة فمن ذلك قوله :

يا ابن حرب كسوتني طيلساناً　　مل من صحبة الزمان وصدّا
طال ترداده إلى الرفو حتى　　لـو بعثنـاه وحـده لتهـدّى

ويقال انه عمل في هذا الطيلسان مائتي مقطوع في كل مقطوع معنى بديع . والحق أن البيتين المذكورين للحمدوني هما اجود من جميع ما نظمه هذا الشاعر في طيلسان ابن حرب أما ما عدا ذلك فهو شعر لا يخلو من التكلف والركة . ويبدو لنا أنّه منحول .

رواية المبرد :

قال الثعالبي في كتاب « ثمار القلوب » عن طيلسان ابن حرب . ابن حرب هو احمد بن حرب المهلبي كان قد وهب الحمدوني الشاعر طيلسانا لم يرضه . قال محمد بن يزيد المبرد فانشدنا فيه عشر مقطعات فاستحلينا مذهبه فيها فجعلها فوق الخمسين فطارت كل مطار ، وذهبت كل مذهب[١] وجاء في كتاب أنباء الرواة للقفطي أن أحمد بن حرب كان صديقا للمبرد . وهو الذي تحدث عن سبب إشخاص المبرد من البصرة إلى سامراء للاستئناس برأيه في مسألة نحويّة[٢] .

---

(١) أنظر كتاب زهر الاداب للحصري ٢ : ٢٣٤ - ٢٣٧ .
(٢) راجع ترجمة المبرد في أنباء الرواة للقفطي ٣ : ٢٤١ .

ابن سارة وأبو بكر ابن العربي :

كانت لابن سارة صلة وثيقة بقاضي اشبيلية ابي بكر ابن العربي وله فيه مدائح غير قليلة ويلاحظ أن شعره في المديح حافل بوصف مجالي الطبيعة وفي كتاب أزهار الرياض للمقري : قال : ـ يعني أبا بكر ابن العربي الأشبيلي ـ دخل عليّ ابن سارة وبين يدي نار علاها رماد فقلت لنقل في هذا فقال :

شابت نواصي النار بعد سوادها وتسترت عنا بثوب رماد

قال ابن سارة أجز فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا فكأننا كنا على ميعاد

ولابن سارة ترجمة حسنة في قلائد العقيان تضمنت نبذة من شعره ومن ذلك أبيات في صاحبه القاضي أبي بكر ابن العربي منها :

قد حططنا الرحال في ظل دوح أثمر البر فيه والإكرام
هو رضوان في سكينة رضوى رضى الله عنه والإسلام

ابن سارة وبلده شنترين :

ينسب ابن سارة الشاعر إلى « شنترين » وأصل الشين فيها سين في لغة الإسبانيين وكثيراً ما تقلب السين في الاسبانية إلى شين بالعربية في الأندلس . وشنترين معدودة في كور « باجة » وهي على ما يقول الحميري في الروض المعطار من اكرم الارضين ، ونهرها يفيض على بطحائها كفيض نيل مصر فيزدرع أهلها على ثراه عند انقطاع الزريعة في البلاد وذهاب أوانها فلا يقصر نماؤه الطيب ولا يتأخر إتاه وإدراكه . ومن أقاليمها (صقلب) ولشنترين جزائر في البحر مسكونة وأحوازها متصلة بأحواز

باجه . وكان يوسف بن عبد المؤمن اجتاز عليها في حركته الأندلسية المشهورة . ويلاحظ أن الحميري مصنف المعجم المسمى بالروض المعطار معجب بسقي النيل وبخيرات المشرق والبلاد المصرية خاصة . يكثر من المقارنة بين محاصيل الديار الأندلسية ومحاصيل مصر والشرق فيقول عن فحص (غرناطة)والبيرة هو أطيب البقاع نجعة واكرم الارضين تربة ولا يعدل به مكان غير (غوطة دمشق) و(شارحة الغيوم) وكتان هذا الفحص فحص البيرة يربو جيده على كتان النيل . وهكذا يعني الحميري في معجمه بخصائص الديار الأندلسية ويقارنها بخصائص الديار المشرقية فيقول : « الأندلس شامية في طيبها وهوائها يمانية في اعتدالها واستوائها هندية في تمصرها وزكائها أهوازية في عظم جبايتها .صينية في جواهرها ومعادنها . عدنية في منافع سواحلها » ومعنى ذلك أن بلاد المشرق المذكورة أمثلة تحتذى في وصف البلاد الأندلسية .

وصف النار

أولع هذا الشاعر بوصف النار واستوحى عنصرها ونظم فيها أكثر من مقطوعة وله أبيات مشهورة في جبل (شلير) المعروف في الأندلس بزمهريره الشديد وبكثرة قراه واثماره وخيراته .ويقول الحميري في معجمه يكون في قراه أفضل الحرير والكتان الذي يفضل كتان الفيّوم وفيه يقول ابن سارة واستغفر الله من كتب هذا الاستخفاف :

يحل لنا ترك الصلاة بأرضكم	وشرب الحميّا وهو شيء محرم
فراراً إلى أرض الجحيم فإنها	أحن علينا من شلير وأرحم
فإن كنت ربي مُدخلي في جهنم	ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم[1]

فبماذا يعلل كلف الشاعر بوصف النار . إنها ولا شك صبّارة الشتاء في

(١) مادة شلير من معجم الروض المعطار .

الغرب شتاء قارص البرد لا عهد لأهل المشرق بمثله ، والغالب أن الشتاء كان شديد الوطأة في وطن هذا الشاعر فكانت درجة الحرارة تهبط إلى ما دون الصفر كثيراً فتكون النار عندهم ـ وهي عند العرب كذلك ـ فاكهة الشتاء ومن أسماء النار عندهم (الأنيسة) أي أنها تدعو إلى الاجتماع والاحتشاد حولها في الليالي القارسة وقد لاحظنا تبكير فصل الشتاء في الغرب حتى في الاقاليم الجنوبية منها . ولما مررنا في أوائل الخريف الماضي باسبانية وإيطالية رأيناهم في ذلك الأوان يستخدمون من أجهزة التدفئة ليلاً ما لا نستخدمه إلا في بعض الليالي الشاتية وقد لا نستخدمها على الاطلاق . فالى هذا مرد ولع بعض شعراء الأندلس ومنهم ابن سارة بوصف النار وكان وقودهم في ذلك العصر كما لا يخفى الفحم والحطب الجزل في المواقد والكوانين وهي أجهزة بسيطة استوحى شعراؤهم جمرها المتوقد ورمادها الفضي وتفننوا في وصفه بخلاف مواقدنا الصناعية وأجهزة التدفئة عندنا اليوم من بخارية وكهربيَّة . وما أكثر الأمثلة في شعر الأندلسيين من هذا القبيل . ولا يخلو شعر شعراء الأقاليم الباردة في المشرق كبلاد فارس وخراسان من هذا الفن واليك بعض مقطعات ابن سارة في وصف النار .

لابنة الزند في الكوانين جمرٌ　　　كالدراري في دجى الظلماء
خبروني عنها ولا تكذبوني　　　ألـديهـا صناعـة الكيميـاء
سبكت فحمها صفائح تبر　　　رصعتهـا بالفضـة البيضـاء
سفرت في عشائهـا فأرتنـا　　　حاجب الشمس طالعاً في العشاء
لو ترانا من حولها قلت شرب　　　يتعاطون أكـؤس الصهبـاء

قال العماد الكاتب معلقاً على هذا البيت ـ وقد أصاب في هذ التعليق ـ هو مقلوب بيت أبي فراس

لو ترى الشرب حولها من بعيد　　　قلت قوم من قرة يصطلونا

هذا ويلاحظ أن تشبيه أبي فراس أحلى وأصح من تشبيه ابن سارة .

وفي وصفها أيضاً لابن سارة .

جاءتك في تنورها المسجور	. . .[1] في حلل من الديجور
لما تهلل في الظلام جبينها	لبس الظلام بها غلالة نور
يا حسنها وقد ارتمت جنباتها	شرراً كمثل المسجد المنثور
والجمر من خلل الرماد كأنه	ورد عليه ذريره الكافور

وله فيها .

زهراء مدت لنا من دفئها لحفا	لم يعلم البرد فيها أين موضعنا
لها بريق بكانون نطيف به	كمثل جام رحيق فيه مكرعنا
نار تقرّبنا حيناً وتبعدنا	كالأم تفطمنا حيناً وترضعنا

وله في وصف النارنج .

أرى ثمر النارنج أبدى لنا جنى	كقطر دموع ضرجتها اللواعج
كرات عقيق في غصون زبرجد	بكف نسيم الريح منها صوالج
نقبلها طوراً وطوراً نشمها	فهن خدود بيننا ونوافج
نَهى صبوتي ألّا تصيخ إلى النهي[2]	عروس من الدنيا عليها دمالج

ولابن سارة يصف نجما انقض وترك وراءه مستطيل ضياء .

---

(١) بياض في الأصل .

(٢) لا وجه للنفي في مصراع هذا البيت .

وكوكب أبصر العفريت مسترقاً للسمع فانقض يذكي إثره لهبه
كفارس حلّ إحضاراً عمامته يجرها ولها من خلفة عَذَبه

في الزهد :

يا من يصيخ إلى داعي الشقاء وقد نادى به الناعيان الشيب والكبر
إن كنت لا تسمع الذكرى ففيم يرى في رأسك الواعيان السمع والبصر
ليس الأصم ولا الأعمى سوى رجل لم يهده الهاديان العين والأثر
لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الأعلى ولا النيران الشمس والقمر
ليرحلن عن الدنيا وان كرها فراقها الثاويان البدو والحضر[1]

صورة رائعة لفرسان الافرنج :

قال العماد الكاتب في آخر الفصل الذي عقده لذكر ابن سارة طالعت كتاب الجنان لابن الزبير . فوجدت فيه منسوباً إلى ابن سارة يصف بركة وسلاحفها .

لله مسحورة في شكل ناظرة من الأزاهير أهداب لها وُطُفُ
فيها سلاحف ألهاني تعافسها في مائها ولها من عِرمِض لُحُفُ
تُباكر الشطَّ الاّ حين يحضرها برد العشي فتستدلى وتنصرف
كأنها حين يهديها تصّرفها جيش النصارى على أكتافها الجحف

قال الرشيد ابن الزبير . وهذا معنى بديع لا يفطن لحسنه إلاّ من رأى فرسان الإفرنج ورؤسهم أشبه الاشياء برؤوس السلاحف لما عليها من البخانق .

من صور الغروب والشروق

ولما رأيت الغرب قد شطَّ بالدجى وفي الشرق من ضوء الصباح دلايل

---

(١) لا يوجد هذا البيت الأخير في الخريدة والزيادة من كتاب القلائد للفتح ابن خاقان . أنظر قلائد العقيان : ٢٦٦ .

توهمت أن الغرب بحر اخوضه　　وأن الذي يبدو من الشرق ساحل

احتقار المرأة :

إذا كان لكل جواد كبوة ولكل سيف نبوة فإن هذا الجواد السباق في حلبة الأدب عثر عثرة كبيرة في أبيات له حمد فيها الموت لأنه اختطف إحدى بناته فواراها التراب . وكان الموت على رأيه الباطل من أكرم الأصهار .

وفي ذلك يقول :

ألا ياموت كنت بنا رؤوفاً　　فجددت الحياة لنا بزوره
حمدتُ لفعلك المأثور لمّا　　كفيتَ مؤُونةً وسترت عوره
فأنكحْنا الضريح بغير مهرٍ　　وجهّزنا الفتاة بغير شَوره

فهذه أبياتٌ تُنادي بأن نظر الشاعر إلى الأنثى لا يعدو نظر أهل الجاهلية الذين سَفَّه الشرعُ مذهبهم . وندَد ببخسهم قيمة المرأة في هذه الحياة . ولا يخفى أن المسلمين امروا بالرفق واللطف ونهوا عن العُنف والخشونة في معاملة النساء ، فللنساء حقوق وعليهن واجبات لوحظ في فرضها الاتزان والاعتدال ، فلا يجوز أن تتخذ المرأة معبوداً كما يفعل بعض السفهاء ولا يصح أن تعتبر قِنية أو متاعاً في البيت ، قال الشاعر :

كُتب القتل والقتال علينا　　وعلى المحصنات جرّ الذيول

الجهالة والثروة :

لابن سارة مما أورده الفتح ابن خاقان :

عابوا الجهالة وازدروا بحقوها　　وتهافتوا بحديثها في المجلس

وهي التي ينقاد في يدها الغنى　　وتجيئها الدنيا برغم المعطس
إن الجهالة للغنى جـذابـة　　جذب الحديد حجارة المغنيطس

الأسباب والمسببات :

من قصيدة له في أبي العلاء ابن زهر :

للرزق أسبابٌ ومن أسبابه　　أعمال ناجيـةٍ وشدُّ جِـزام
من نام عن حاجاته لم يلقها　　إلّا بـواسطةٍ من الأحـلام
شيئان في الأسفار يكتنفانها　　كَسْبُ الخطير وصحَّة الأجسام
خيمتُ من حنقٍ بأرض مضيعة　　فالرأي خلفي والهوى قدامي
حتى رأيت العجز أودى بي كما　　أودى الغرام بعروة بن حزام
أكَلَ الخمولُ بها بنات خواطرى　　أكل الوصيّ ذخائر الأيتام

ابن سارة وبيع المحقرات :

وممن عني بترجمة هذا الشاعر القاضي ابن خلكان[1] وهو عنده « أبو محمد عبدالله بن محمد بن سارة البكري الأندلسي الشنتيريني الشاعر المشهور » وقال بعد ذلك أثنى عليه ابن بسام في الذخيرة ، وكان يبيع « المحقرات » وبعد جهدٍ ارتقى إلى كتابة بعض الولاة . فلما كان من خلع الملوك أوى إلى إشبيلية ، وتبلغ من الوراقة وله ديوان شعر أكثره جيّد وكانت وفاته سنة ٥١٧ بمدينة المَرِيّة .

يهجو صاحباً له

قال ابن خلكان ومن شعره :

وصاحب لي كداء البطن صحبته　　يونّى كوداد الذئب للراعي

(١) الوفيات ١ : ٣٣١ ـ ٣٣٢ .

يُثنى عليّ جزاه الله صالحة   ثناء هند على روح بن زنباع

روح بن زنباع الجذامى صاحب عبد الملك بن مروان وفيه تقول زوجته هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري وكانت كارهة له :

وهل هند ألّا مهرة عربيةٌ   سليلة أفراس تجللها بغـل
فإن أنجبت مهراً كريماً فبالحرى   وإن يك أفراف فما أنجب الفحل

بين الشاعرين الأبيض وابن سارة :

قال المقري[1] هاجي الشاعرُ الأندلسي ، المعروف بالأبيض ، ابنَ سارة فقال فيه :

ومن العجائب أن يكون الأبيض   بحماره بين السوابق يركض

١٢ ـ أبو الحجاج الأنصاري الأندلسي :

في الخريدة أبو الحجاج يوسف الأنصاري الأندلسي من ثغر شرقي الأندلس من بلاد المغرب . ونشوؤه بجيان ، دخل بغداد وخراسان في طلب الحديث وتوفي ببلخ في ذي القعدة سنة ٥٤٨ . قال السمعاني أنشدني أبو الحجاج المغربي لنفسه في هراة وقال أيضاً أنشدني ببلخ في الإجازة :

أجزت لهم رواية ما أحبّوا   من المسموع لي والمستجاز
وحظ المغـربي بهم سعيـد   على وجه الحقيقة لا المجاز

(١) نفح الطيب ٢ : ٢٨٧ .

١٣ ـ الفقيه التلمساني :

أبو الحسن خطاب بن أحمد بن عدي بن خطاب بن خليفة بن أبي الوليد ذكره الفقيه ابو الحجاج يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي ببغداد وأنه ورد بغداد وله شعر حسن ويَدٌ باسطة في اللغة ثم اورد له بيتين .

١٤ ـ ابن رزين :

قال العماد وصفه ابن خاقان ؛ بالجلالة والأصالة واكتفى ـ أي العماد ـ بإيراد مقطوعة لابن رزين يصف بها إحدى الحدائق مع أن ترجمته في الذخيرة مبسوطة تتضمن من شعره مقطعات عدة وأخبارا ومراسلات بينه وبين ابن عمار .

١٥ ـ أبو القاسم ابن العطار :

قال العماد ذكر ـ اي صاحب القلائد ـ أنه أحد نحاة إشبيلية أورد نبذة من أشعاره وعَدهُ من المنغمسين في اللهو والمجانة بينه وبين الفتح ابن خاقان مراسلات شعرية قال في القلائد وله ـ أي لابن العطار ـ يخاطبني وقد رحلنا إلى قرطبة :

كتبت اليك يا رب الكتابة　　حروفاً خطها قلم الكتـابة
بقـرطبة البيـان تعب عبـاً　　وليس بجمعنا منه صبـابة
وأما حمص منذ رحلت عنها　　فيـأبى وجههـا إلا كـآبـه

١٦ ـ ابن عيشون :

في الخريدة الأديب الحاج ابو عامر بن عيشون ـ وفيها بعد ذلك إشارة إلى ترجمة ابن خاقان له ، وأنه رحل إلى المشرق ونزل مصر في عصر الأفضل ولكنه لم يَحمدْ عواقب هذه الرحلة . وقد أفضى بهذا المعنى إلى الفتح ابن خاقان وهو معاصر له . أورد له بعض المقطعات قال في القلائد . ورأى عليَّ غِفارة وخاتماً كلاهما مستغرب فوَجه إليَّ في الغفارة فبعثتها إليه فكتب إلي[١] .

نشقنا من المجد الموثَّل نفحةً   تزيد على الند المثلث والمسك
وما ذاك إلا أنْ سألت فجادلي   أبو نصرٍ الأعلى بِبرنُسِهِ المسكي

شغف الفتح ابن خاقان بالحديث عن نفسه :

هذا ما ورد في قلائد العقيان ـ وهو قليل من كثير . ويلاحظ من تضاعيف هذا الكتاب أنَّ مؤلفه الفتح يعنى كثيراً بالحديث عن نفسه ، وبثَّ الدعوة له ولذلك نراه يورد ما كُوتبَ به من رسائل او ما خوطب من شعر خصوصا إذا تضمنِ ثناءً بالغاً عليه . ولولا أن لبعض الشعراء صلة أو مدحاً فيه لأخلى كتابه من ذكرهم على الأكثر ، والأمثلة غير قليلة في كتابه على ذلك . ومن هذا القبيل الشاعران الاندلسيان المذكوران ابن العطار وابن عيشون .

١٧ ـ غلام البكري الشاعر المصور :

هو أبو الحسن محمد[٢] غلام البكري . لا ندري لما ظلَّ هذا الشاعر

(١) لخص العماد الكاتب ترجمة ابن عيشون عن القلائد ، وبين الترجمتين فوارق ظاهرة في التعبير . ونقل المقري في النفح ترجمة صاحب القلائد لابن عيشون . ويلاحظ أن العماد الكاتب يقتبس من نسخة غير النسخة المطبوعة من القلائد في كثير من الأحيان .

(٢) اسم الأب غير مذكور في مآخذ الترجمة له .

الأندلسي المجيد مغموراً خامل الذكر في تاريخ آداب الديار الأندلسية مع أنه فيما نرى ، من بين شعراء الطبقة الأولى من الأندلسيين متقدميهم ومتأخريهم . ولا نعلم لماذا لم يوجد من شعره إلا القليل . قال العماد : وصفه ابن خاقان بالخاطر المولِّد المخترع . وأنه لقي آخر الدولة العباديَّة في شبابه ، والمُرابِطيَّة في شيخوخته ولَه قصائد استعذبت ، وشرَّقتْ في البلاد وغرَّبت . أورد له صاحب القلائد ثلاثة قصائد اقتبس منها صاحب الخريدة قصيدتين . وزاد ثالثة لا توجد في النسخة المطبوعة من قلائد العقيان . ولا نعلم على وجه التأكيد من أي كتابٍ نقلها . وهذا التفاوت يدل على أن نسخة القلائد التي اعتمد عليها العماد غير هذه النسخة المتداولة أضف إلى ذلك ان النسخة المطبوعة من هذا الكتاب كثيرة الغلط والتحريف وما أشبهها بنسختنا المخطوطة من كتاب الخريدة .

عهد الحداثة

في الأبيات التالية من شعر الشاعر الأندلسي غلام البكري صُورة رائعة لحياة الفِطرة البريئة الهانئة في عصر الصبا والحداثة ، وهي صورة قلَّ من رسمها ، بل هو معنى ندر من طرقه أو حام حوله من الشعراء متقدمين ومحدثين . قال الشاعر المذكور وقد تخلص من ذلك إلى المديح .

أرَّقني بعدك البعاد ... فناظري كحله سهاد
يا غائباً وهو في فؤادي ... إن كان لي بعده فؤاد
الله يدري وأنت تدري ... أن اعتقادي بك اعتقاد
تذكر والحادثات بُلْهٌ ... ليس لها ألسنٌ حِدَاد
ونحن في مكتب المعالي ... يصبغُ أفواهنا المداد
يُسدلُ ستر الصبا علينا ... والأرض[1] من تحتنا مهاد

(١) في القلائد الأمن بدل الأرض .

لا نتهـدَّى لمـا خُـلقـنـا ... نجهل ما الكـون والفساد
تكلؤنـا من حفـاظ بكـر ... لـواحظُ مـا لهـا رقـاد
وهمـة نـاجـتِ الثُـريَّـا ... تقـود صعبـاً ولا تقـاد
وذمـة[2] بـيـننـا لـعمـري ... يحـفـظهـا السـيـد الجـواد
يـا غـرر المجـد في جبـاءٍ ... لم تبـد أشكـالهـا الجيـاد
إذا استهـلت لهـا سـماء ... أو رق من تحتها الجماد
وأنت في ألسـن البـرايـا ... معنـىً بـألفـاظهـا مُعـاد
حسبُ العدى منك ما رأوه ... لا وَريـت للعـدى زنـاد
لم يعلم الصـائـدون منهم ... أنـك عـنقـاء لا تـصـاد
والليْثُ شبعـان لا يُبـالي ... إذا نـزتْ حـولـه النّقـاد

وحشة وانقطاع

من قصيدة له :

نكرتُ الدنا والأرض منها فليس لي ... بها عَقوةٌ آوى إليها ولا أهلُ
وأفردني صرف الزمان كأنني ... طريرٌ من الهنديّ أخلصه الصقل
وكم من حبيب كان روضة خاطري ... يرف ويندى بين أفنانها الوصل
ضحا ظلّهُ إذ كُوِّرَتْ لي شمسه ... فشخص نعيمي لا يقوم له ظلُّ

---

(٢) في القلائد (أذمة) .

في الحكمة :

أعـزّ البـريَّـة في نفسـه فتى خاشع الطرف من غير ذل
ومن يزن القول وزن النضار فلا يفتح القول أو يعتدل
تكاثر نوع الأذى في الورى فلست ترى غير سمع أزل
وقلَّ أولو الفضل إن حصَّلوا وهـل يتحصل نـور المقل
فخـالط أنـاسـاً وزايلهـم وكن فيهم ظلك المنتقـل
لقـاؤهم يستـدر الدمـوع ويذكي الضلوع ويوهي القلل
وفيهم مشابه ما في الفلاة خداع السراب وجور السبل
وبـين ضلوعي مـا بينهـا وينهضني الحادث المصمئـل
وفي راحتيَّ مـرائي الهـدى تريني الهدايـة قبل الـزلل
حديقة فكر سقاها الحجى فـأثمـرت الكلـم المنتخـل
تمـرُّ عـلى أذن المستفيـد مرور الحيا بالجديب المحل

١٨ ـ أبو مروان ابن أبي الخصال :

قال العماد سبق ذكـر أخيه أبي عبـدالله ابن ابي الخصّال لـه رسائـل كثيرة ، وقد ورد ذكره في القلائد . ودارت بينه وبين الفتح ابن خاقان مراسلات ومشاعرات وعُني بإيراد جملة من رسائله واختار من ذلك رسالة كتب بها الفتح إليه عندما وصل أمير المسلمين إلى إشبيلية صادراً عن غزوة « طلبيرة » سنة ٥٠٣ . والخلاصة أثنى عليه ثناءً بالغاً وأشار إلى صلته الوثيقة بأمراء المرابطين في الأندلس والمغرب .

١٩ - ابن أبي الخصال والمرابطون :

يَعد المراكشي(١) أبا عبدالله محمد بن أبي الخصال وأخاه أبا مروان اكبر الكتاب والوزراء مكانة عند السلطان علي بن يوسف بن تاشفين . قال المراكشي « وحق له ذلك » فهو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب . وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر الباع الطويل . ويستفاد من هذا الفصل الذي عقده صاحب المعجب لذكر كُتاب المرابطين ان علياً بن يوسف جمع في دولته من أعيان كتاب الأندلس ما لم يجتمع في دولة غيره ، وكان يستدعيهم من الجزيرة الأندلسية . ولكن السلطان وجد عليهما آخر الأمر ، وثبت عنده أن هذين الكاتبين البليغين يكنان كرهاً عظيماً للمرابطين استناداً الى بعض رسائلهم التي استحسنها اهل الأندلس في ذم المرابطين ، وتقريعهم على بعض هزائمهم في الحروب مع الإفرنج ومن ثم رغب في إغفائهما من الخدمة ، فعاد أبو عبدالله إلى الأندلس بعد موت أخيه أبي مروان . هذا وللأخوين المذكورين من آل أبي الخصّال ذكر في كتاب المطرب للحفاظ ابن دحية . ومن شعر أبي عبدالله ابن ابي الخصّال وكتب به الى الوزير المشرف ابن رحيم .

إذا ما شرف الإشرافُ قوما   فـإن بني رحيم شـرفـوه
ومن يُعرف به فهمُ قديما   وإن رغمت أنوف عرّفـوه
كفـاء للملوك على سبيـل   ودينِ نصيحـة ما حـرفـوه

---

(١) المعجب ١١ - ١٢ .

٢٠ ـ ابن الزقاق :

أبو الحسن علي بن عطية البلنسي المعروف بابن الزقاق « متأخر في الزمان متقدم في الإحسان » ، من محاسنه :

وصف الرياض

أديراها على الصبح المندى   فحكم الصبح في الظلماء ماض
وما غربت نجوم الليل لكن   نُقلن من السماء إلى الرياض

في يوم سبت

وحبّبَ يوم السبت عندي أنه   يُنادي به الحِب الذي أنا أحببت
ومن أعجب الأشياء أني مسلم   حنيف ولكن خير أيامي السبت

الخصور الدقيقة

أسائلها أين الوشاح وقد سرت   معطلة منه معطرة النشر
فقالت ـ وأومت للسوار ـ نقلته   إلى معصمي لما تقلقل في خصر

قال العماد الكاتب في التعليق على ذلك « المعنى جيد ولكن الألفاظ ليست كذلك وأحسن منه قول صرّدر البغدادي » .

واستهدت الخصور من بنانها   خواتما تجعلها مناطقا

وقوله من أبيات :

على عاتقي من ساعديها حمائل   وفي خصرها من ساعدي وشاح

هذا ما قاله العماد الكاتب في المفاضلة بين شعر صردر وشعر ابن الزقاق . ولم يوفق في النقد فإن الصورة التي رسمها ابن الزقاق من الصور الشعرية الحية وأما صرّدر فليس في شعره غير التلاعب بالألفاظ .

مفخرة الأندلسيين :

هذا كل ما جاء في الخريدة عن ابن الزَّقاق . ويستفاد من دراسة آداب اللغة العربية في الأندلس أن ابن الزقاق ثاني اثنين من الشعراء الذين يباهي الأندلسيون ويفاخرون بهما غيرهم . أولهما ابن خفاجة وثانيهما أبو الحسن علي ابن عطية المعروف بابن الزقاق . وهو يتميز ببراعته في فن التشبيهات وتجديده وإبداعه في هذه الناحية . وقد ورد ذكره في رسالة طريفة أنشأها « الشقندي » في فضل الأندلس[1] وفي هذه الرسالة يعد هذا الشاعر في الطبقة الأولى من الشعراء المبدعين المجددين في الأندلس فإنه أعرض عن تقليد القدماء ، ومما قاله « الشقندي » وهو يخاطب بعض أدباء المغرب « وهل منكم شاعر رأى الناس قد ضجوا من تشبيه الثغر بالأقاحي ، وتشبيه الزهر بالنجوم ، وتشبيه الخدود بالشقائق . فتلطف لذلك في أن يأتي به في منزع يُصيّرُ خِلَقَه في الأسماع جديداً وكليله حديداً فأغرب أحسن إغراب . وأعرب عن فهمه بحسن تخيله أجمل إعراب وهو ابن الزقاق » .

ومن شواهد الشقندي على مذهبه المذكور في ابن الزقاق أبياته التالية :

وأغيدٍ طاف بالكؤوس ضحى وحثها والصباح قد وضحا
والروض أهدى لنا شقايقه وآسُه العنبرى قد نفحا

(١) نفح الطيب ٢ ـ ١٣٩ ط أوربه ، والشقندي صاحب هذه الرسالة من أعلام صدر المائة السابعة في الأندلس توفي سنة ٦٢٩ ورسالته معروفة . والمقري يعني بالنقل من هذه الرسالة وفي تضاعيف نفح الطيب نبذ منقولة عنها ومن ذلك نبذة في الفرسان والفروسية وفضلها عند الأندلسيين .

قلنـا وأين الأقـاحِ قـال لنـا أودعتـه ثغر من سقى القـدحـا
فـظل سـاقي المـدام يجحـد مـا قـال فـلما تبـسم افـتـضـحـا

مذهب المقري في تفضيل الاندلس :

هذا المقري المؤرخ الأديب ، مصنف نفح الطيب وأزهار الرياض ، أندلسيٌّ قح شديد الاعتزاز بأندلسيته والإشادة بذكر بلاده والتنويه بمزاياهـا وتفضيلها على كل بلد آخر . وهو يحمد على ذلك على شرط ألاّ يؤدي هذا الإفراط والغلو الى غمط حق آخر . ولكنها طبيعة الإفـراط لا مناص معهـا من التفـريط وحسنا فعـل المقـري في إيـراد رسـالـة الشقـنـدي في تفضيـل الأنـدلس وهي على مـا يـظهـر رد عـلى رسـالـة أديب مغـربي أو طنجي في تفضيل المغرب . وكان على المقري أن يُوردَ هذه الرسالة المغـربية كـما أورد الرسالة الأندلسية ولكنه لم يفعل ولعله لم يظفر بالرسالة المذكورة .

الملاحاة بين الأندلسيين والمغاربة :

هـذا ويستفاد ممـا تقدم أن بـلاد الأندلس والمغـرب شهـدت خـلال المائتين السادسة والسابعة ضرباً من الملاحاة والمفـاخرة بـين أدباء البلدين ، ولا شك أن عبور المرابطين ومن بعدهم الموحـدون . وما جـرى بعد ذلـك من الاختلاط والاتصال الـوثيق ولّد ضـرباً من تجني كـل فريق عـلى الآخر وقـد تفاقم هـذا التجني فجّر الى حـروب وفتن معروفة . ومن ذلـك فتنـة قرطبة بين أهلها وحكامها من المرابطين وهي من فتن الأندلس المشهورة في صدر المائة السادسة . ولا ريب أيضاً أن الشك خامر المرابطين من المغاربة والأفارقة في الأندلس باخلاص من اصطنعوهم أو استخدمـوهم في شؤون الدولة أو في دواوين الترسل والإنشاء خاصة من أعلام الاندلسيين ، فأقيلو من منـاصبهم وأعفوا من الخـدمة ، وأعيـد من أعيد منهم إلى الأنـدلس ، وأوذي منهم من أوذي والحادثة التي قتل فيها الفتح ابن خاقان من الحوادث

المعروفة في الديار المغربية . ومن هذا القبيل ما جرى على آل أبي الخصّال من أعلام الأندلسيين في دولة على ابن يوسف ابن تاشفين وإعفائهم من مناصبهم بعد أن خامره الشك باخلاصهم لتحاملهم على المرابطين ونسبة التقصير والجبن لهم في واقعة العقاب المشهورة التي محص فيها المسلمون . وفي هذه الواقعة استطاع الأسبانيون أن يثأروا لأنفسهم من وقعة الزلاقة المشهورة في عصر يوسف بن تاشفين ملك المرابطين .

مذهب في المقارنة بين الفسطاط وإشبيلية :

أبو الحسن ابن سعيد ، صاحب كتاب المُغرب في حلي المَغرب ، أديب أندلسي الأصل سليم الذوق . وله مذهب في تفضيل الأندلس على غيرها من البلاد حذا حذوه المقري فيه بعد ذلك . ولابن سعيد فصول عقدها في هذا المعنى ، وفي بعض هذه الفصول وصف لمعالم القاهرة والفسطاط وأحوالها من شتى النواحي . ومن رأيه ان تربة القاهرة سبخة غير نقية . وهو يؤاخذ المصريين في ذلك العهد على قلة العناية بالنظافة حتى في المساجد وأماكن العبادة . فهي دون مساجد إشبيلية والأندلس على ما يقول ، ولكن ابن سعيد وجد نفسه وهو في داخل جامع الفسطاط أكثر ارتياحاً وانشراحاً وأوفر طمأنينة وخشوعاً على ما هو عليه جامع الفسطاط من البساطة وعلى خلوه من تلك الزخرفة والأساطين الرخامية الجميلة والحصر التي تؤزر بها الحيطان والحدائق والأشجار التي يراها الداخلون إلى مساجد الأندلس وخصوصاً مساجد إشبيلية وقرطبة .

هذا ويعلل ابن سعيد شعوره بالطمأنينة والسكينة عندما دخل جامع الفسطاط بمواقف الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين ومثولهم في تلك المشاهد ومما استرعى نظره في المسجد نظام الحلقات لإقراء القرآن ودراسة الفقه والنحو وغير ذلك في أركان عدة من الجامع . والغالب أن ذلك لم يكن مألوفاً في جوامع الديار الأندلسية ، ولم تعجب ابن سعيد مواد البناء

في كثير من أحياء القاهرة فهي عبارة عن الطوب والقصب والسعف والطين والتراب في شوارع غير مستقيمة وأحياء مشتتة . وحول أبوابها من التراب الأسود والأزبال ما يقبض النفوس . وإليك نبذة مما قاله ابن سعيد بنصها عندما دخل الفسطاط[1] :

« لما أقبلت على الفسطاط أدبرتْ عني المسرة ، وتأملتُ أسواراً مثلَّمة سوداء وآفاقاً معبرة إلى أن صرت في أسواقها الضيقة فقاسيت من ازدحام الناس فيها لحوائج السوق والروايا التي على الجمال ما لا يفي به إلا مشاهدته إلى أن انتهيت إلى المسجد الجامع فعاينت من ضيق الأسواق التي حوله ما ذكرتُ به ضده في جامع إشبيلية وجامع مراكش ، وأبصرت العامة رجالاً ونساء قد جعلوه معبراً يجوزون فيه من باب إلى باب . والبياعون يبيعون فيه ، والناس يأكلون غير محتشمين . وفضلات مآكلهم مطروحة في أرض الجامع . وفي زواياه العنكبوت وقد عظم نسجه . وحيطانه مكتوبة بالفحم والحمرة بخطوط قبيحة »[2] . هذا ملخص ما أورده المقري عن ابن سعيد . وكان عليه أن يعلم أن بعض ما ذكره مردودٌ إلى طبيعة البلاد وإلى خواص المكان والمناخ ولا دخل فيه لإرادة المصريين .

٢١ ـ ابن معلي البرباني :

قال العماد هو من حصن بشرقي الأندلس يقال له بريانه[3] له من قصيدة رائياً :

أمعتنق الصعيد وكان يغدو ... عليه وهو معتنق الصعاد

أرى لبس الحداد عليك مما ... يشق على المهندة الحداد

---

(١) و(٢) انظر نفح الطيب للمقري ط الحديثة ٣ ، ١٠٣ ـ ١٠٥ .

(٣) انظر عنها حرف الباء من معجم الحميري المسمى بالروض المعطار .

وقد ترجم ابن بسام[1] لمن دعاه « الأديب أبـو جعفر بن معـلي وخبر واقعـة « بطرنـة » وبطرنـة قريـة بها كـانت الوقعـة المشهورة للنصـارى على المسلمـين وفيها يقـول أبـو اسحق ابن معـلي الـطرسـوني يقـرع قـومـه من الأندلسيين :

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حلل الحـريـر عليكم ألـوانـا
مـا كان أقبحهم وأحسنكم بهـا لـو لم يكن ببـطرنـة مـا كـانـا

٢٢ ـ السميسير الألبيري :

أبـو القاسم خلف بن فـرج الألبيري المعـروف بالسميسـير ذكره أبـو الصلت في الحديقة. هذا ما جاء في الخريدة، وللسميسير ترجمة اضـافية في الـذخيرة أورد فيهـا جملة صالحـة من نظمـه ونثـره . قـال ابن بسـام « هـو صـاحب مزدوج كـأنه حـذا حذو منصـور الفقيه ولـه مذهب استفـرغ فيـه مجهوده » . قلت وتوجد بعض رسائله بين مخطوطات خزانة مدينة الرباط ، ومما يتميز به شعر السميسير ضرب من السخـرية الـلاذعة وهـو من الأقليم المعروف قديماً بالشرف الواقع بين الـوادي الكبير من ملحقـات إشبيلية إلى بطليوس .

قال صاحب الروض عن « البيرة » من كور الأندلس جليلة القدر ، لها جند دمشق من العرب وكثير من مـوالي عبد الـرحمن بن معاويـة ، وهو الـذي أسسها وأسكنهـا مواليـه ثم خـالـطهم العـرب بعـد ذلـك . وبـين « إلبيرة » وغرنـاطة تسعـة أميال . هـذا ويردّ أهـل « إلبيرة » تغلّب البـربر عليها إلى سبب غير معقول ذكره الحميري صاحب الروض[2] .

ومن « إلبيـرة » الشـاعـر المتصـوف أبـو إسحق يـوسف بن مسعــود الإلبيري صاحب القصيدة الزهدية التي أولها :

تـفـت فـؤادك الأيـام فـتـا وتنحت جسمك الساعات نحتا

(١) القسم الأول من المجلد الأول من الذخيرة .
(٢) الروض المعطار ٢٩ .

قال الحميري وهي طويلة جدا ومن محاسنه قوله :

ما أميل النفس إلى الباطل ... وأهون الدنيا على الفاضل
آه لسرّ صنته لم أجد ... خلقاً له قط بمستاهل
هل يقظ يسألني علني ... أكشفها لليقظ السائل
لو شغل المرء بتركيبه ... كائن به في شغل شاغل
وعاين الحكمة مجموعة ... ماثلةً في هيكل ماثل

وبساحل إلبيرة كان نزول الأمير عبد الرحمن الداخل إلى الديار الأندلسية وفيها اجتمع المحدثون السبعة من رواة سحنون .

٢٣ ـ ابو العرب الشاعر الصقلي :

قال العماد مصعب بن محمد بن أبي الفرات[١] القرشي ولد في صقلية سنة ٤٥٣ وتوفي بالأندلس . ولم يفرد القاضي ابن خلكان ترجمة لأبي العرب المذكور بيد أننا وجدنا له ترجمة حسنة ضمن ترجمته للحصري القيرواني جاء فيها : « هو أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي الفرات القرشي الزبيري الصقلي الشاعر . ولد بصقلية سنة ٤٢٣[٢] وخرج منها لما تغلب الروم عليها سنة ٤٦٤ قاصداً المعتمد بن عباد ، قال ابن الصيرفي ، بلغني أنه في سنة ٥٠٧ حي بالأندلس »[٣] . وحكى تاج العلا أبو زيد المعروف بالنسابة ، قال حدثني أبو أصبغ نباتة بن الأصبغ بن زيد ابن محمد الحارثي الأندلسي عن جده زيد بن محمد قال بعث المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية إلى أبي العرب الزبيري بخمسمائة دينار وأمره أن

---

(١) كلمة الفرات في الخريدة مصحفة بكلمة « العزائم » .

(٢) لاحظ الاختلاف في تاريخ ميلاد هذا الشاعر ففي الوفيات سنة ٤٢٣ وفي الخريدة سنة ٤٥٣ والأول أصح .

(٣) وفيات الأعيان ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

يتجهز بها ويتوجه إليه ، وكان بجزيرة صقلية وهو من أهلها وبعث مثلها إلى أبي الحسن الحصري وهو بالقيروان فكتب إليه أبو العرب :

لا تعجبن لرأسي كيف شاب أسى — واعجب لأسود عيني كيف لم يشب
البحر للروم لا تجري السفين به — إلا على غَرر والبر للعرب

وكتب إليه الحصري :

أمرتني بركوب البحر أقطعه — غيري لك الخير فاخصصه بذا الداء
ما أنت نوح فتنجيني سفينته — ولا المسيح أنا أمشي على الماء

ثم دخل الأندلس بعد ذلك وامتدح المعتمد وغيره وتوفي سنة ٤٨٨ بطنجة .

٢٤ ـ الفقيه الوقشي :

قال العماد ، هشام بن حمد الوقشي من بيت الكتابة والعلم . وإلى الآن يعيش في زماننا كاتب بليغ مشهور لم يقع إليّ من كلامه شي . ذكره أبو الصلت في الحديقة . وأورد العماد الكاتب في الخريدة على سبيل الاستطراد قول محمد بن مالك :

أما الغرام فقد ألح وزادا — بأعرَّ لا يُعطى المحبَّ قيادا
حلفت صحيفة خدِّه ألّا ترى — في صحنها أبد الزمان سوادا

قال القاضي الفاضل « يقول بعض المغاربة عادة أهل الأندلس لبس البياض » هذا ما جاء في الخريدة . ويستفاد منه أن القاضي الفاضل لم يصل إلى الأندلس . وهذه العادة من العادات التي كانت معروفة في حالة الحداد على عهد الدولة الأموية ثم تركت بعد ذلك أي أن الأندلسيين

فضلوا لبس البياض دائماً لا في حالة الحداد فقط . وانتقلت هذه العادة من الأندلس إلى المغرب . فقد لاحظنا أن البياض هو اللون المحبب عند المغاربة في اللباس خصوصاً في الأقاليم القريبة من الجزيرة الخضراء ولا يستثنى من ذلك القرويون وأهل الأرياف وكانت تلك الأزياء والألوان الناصعة غاية في الجمال . ويلاحظ أيضاً أن البياض هو اللون المُحبَّب لدى المغاربة اليوم في الدهان أو في صباغ الجُدر والحيطان .

لباس الحداد في شعر الأندلسيين :

من عادات الأندلسيين لبس البياض في الحداد . اعتادوا ذلك من عهد دولة بني أمية على ما يستفاد من كتب التاريخ وذلك تحديا للعباسيين فإن شعارهم السواد . وجاء في وصف المؤرخين للاحتفال ببيعة الحَكَم المستنصر المرواني في قرطبة « اصطف في المجلس الذي قعد فيه ـ يعني المستنصر ـ أكابر الفتيان يميناً وشمالاً كلٌ على قدره عليهم الظهائر البيض شعار الحزن على والده الناصر » هذا ما قاله المؤرخون ، وكان ذلك في منتصف المائة الرابعة . وقد أكثر الشعراء من النظم في لباس الحداد بياضاً وسواداً خصوصاً شعراء الديار الأندلسية .

قال ابن شاطر السرقسطي :

قد كنت لا أدري لأية علةٍ	صار 'ابياض لباس كل مصاب
حتى كساني الدهر سحق مُلاءةٍ	بيضاء من شيبي لفقد شبابي

قال الحافظ ابن دحية الذي أورد البيتين « لبس البياض عادة أهل الأندلس في الحزن على موتاهم استنوا ذلك من عهد بني أمية لمخالفة بني العباس في لبس السواد »[١] .

وقال ابن بسام[٢] في ترجمته لأبي حفص ابن برد الأصغر الشاعر

---

(١) كتاب المطرب لابن دحية ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) القسم الثاني من المجلد الأول من الذخيرة ٣٩٩ ، ٤٠٠ .

الوزير رأى ـ يعني ابن برد ـ غلاماً قد بيَّض على عادة أهل افقنا في لباس البياض عند الحزن .

أجِل جفونك في ذا المنظر الحسن ولُم على النأي منه حادث الزمن
واعجب لضدين في مرآه قد جُمعا شخص السرور عليه لُبسة الحزن

وفي لباس أهل أفقنا البياض على المتوفي يقول الحلواني :

لئن كان البياض لباس حزن بأندلس فذاك من الصواب
ألم ترني لبست بياض شيبي لأني قد حزنت على الشباب

وقد اخذ هذا المعنى بعض هل عصرنا . وهو ابو العباس احمد بن قاسم المحدِّث بقرطبة فقال :

قالت وقد نظرت فروعها شيب على الفودين مُنتشر
ما شأن تلك البيض قلت لها مات الشباب فبيَّض الشعر

الشريف البياضي :

أبو جعفر مسعود بن عبد العزيز الشاعر البغدادي المتوفي سنة ٤٦٨ قال القاضي ابن خلكان في ترجمته[١] « وإنما قيل له البياضي لأن أحد أجداده كان في مجلس بعض الخلفاء مع جماعةٍ من العباسيين . وكانوا قد لبسوا السواد ما عداه ، فإنه كان قد لبس بياضاً فقال الخليفة من ذلك البياضي فثبت ذلك الاسم عليه ، واشتهر به » هذا ما قاله ابن خلكان . وأورد بعد ذلك رواية أخرى في صاحب هذا اللقب وأنه من العباسيين ثم قال في آخر الترجمة « ورأيت بخط أسامة بن منقذ أن الذي لقبه بهذا اللقب هو الخليفة الراضي بالله » .

---

(١) الوفيات ٢ : ١٢١ ـ ١٢٢ .

السواد شعار العباسيين[1] :

لأبي عبدالله محمد بن الحسن الصقلي الشاعر :

بنو العباس قد فطنوا لسرّ   بنزعهم لمبيضّ الثياب
لئن لبسوا السواد لقد أصابوا   لأنهم حكوا لون الشباب

٢٥ ـ ابن الصباح :

محمد بن علي بن الصباح الصقلي اورد العماد له في وصف ذكي :

أذْكى الورى كلهم وأعلمهم   فما يُرى مثل لبّه لُب
يوضح بالفهم كل مشكلةٍ   كأنما كل جسمه قلب

٢٦ ـ الأمير ابو محمد الكلبي[2] :

من أفاضل العلماء له يد في الفقه والحديث وهو القائل :

تقول لقد رأيتُ رجال نجدٍ   وما أبصرتُ مثلك في يمان
إلى كم ذا الهجوم على المنايا   وكم هذا التعرض للطعان
فقلت لها سمعت بكل شيء   ولم أسمع بكلبيٍّ جبان

٢٧ ـ ابن فرحان القابسي :

سلّام بن فرحان من قابس مدينة من اعمال القيروان كان جليساً

(١) ترجم له العماد فيمن ترجم لهم من شعراء صقلية وقال هو صاحب ديوان الرسائل والإنشاء شاعر مترسل ومن الأطباء .

(٢) في هذا القسم من الخريدة تراجم موجزة في سطور لجماعة من أمراء صقلية والقيروان من الكلبيين ، وكذلك لبعض الكتاب والقواد وهم كثيرون .

ووزيراً لأميرها رافع بن شهيد بن رافع بن كامل بن جامع الهلالي من بني فارغ ثم من بني علي ثم من بني هلال . قُتل ابن فرحان يوم خروج الأمير المذكور من قابس واستيلاء « المصامدة » عكس عبد المؤمن عليها وذلك في سلخ شعبان سنة ٥٥٤ . ويستفادُ مما أورِدَ لـه أن ابن فرحـان شاعـر جزل الشعر ، بدوي الديباجة . وهو شاعر الأمير المذكـور وفي هذا البـاب عينه ذكر لشاعر معاصر لابن فرحان من هُوارة قال العماد . وهـوارة من قبائـل البربر .

الشعراء القفصيون :

يحي بن التيفاشي القفصي مدح بني هلال وقتله الإفرنـج سنة ٥٥٠ عند فتكهم بالمسلمين . وعمه محمد هو الذي وفد على عبد المؤمن بن علي ملك المغرب ، ومدحه بالقصيدة المشهورة التي اولها :

ما هزَّ عِطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

قال عبد المؤمن لا ينشد بعدها شعر وأمر له بألف دينار .

٢٨ ـ الملك تميم بن باديس :

الملك أبو يحي تميم بن المعز بن باديس . أورد له العمـاد نسباً غـريباً ساقه إلى يعرب بن قحطان بن عامر وهو هود . ثم وصل به إلى إدريس ثم إلى آدم وقـال بعد ذلـك مولـده بالمنصـورية (سنـة ٥٠١) . وولد لـه من الأولاد الذكور مائة وعشرون . وأقام في المهدية وما يليها من البـلاد معظم عمره عظيم القدر مذهب العصـر . إلى أن « قال لقيتُ بـدمشق ولد ولـده وهو الأمير عبد العزيـز ابن شداد بن تميم واعـارني في سنة ٧١ ديـوان جده فطالعته وأثبت من شعره ما ترنح لـه اعطاف السـامعين » ، ويـلي ذلك في نسختنا من الخريدة طائفة غير قليلة من شعره وأكثره غزليات .

٢٩ - عبد المؤمن السجلماسي :

عبد المؤمن بن يحي السجلماسي .

أورد له العماد أبياتا في ذم قاض منها :

تولى القضا مثل هذا البغيض ونجم فساد به قد نجم
نصحت لكم فاقبلوا نصح من يرى قتل قاضيكم في الحرم

٣٠ - أمية بن أبي الصلت الاديب الحكيم :

مر بنا شيء عن امية بن ابي الصلت عند الكلام على كتاب « الحديقة » من أجلّ مآخذ العماد في كتاب الخريدة . وقد عني بعد ذلك بترجمته في هذا القسم من كتابه ترجمة ضافية قائلا « كان أوحد زمانه وأفضل أقرانه متبحراً في العلوم ، وأفضل فضائله إنشاء المنثور والمنظوم . سمعت أبا الفتح نصر بن عبد الرحمن بن إسماعيل الفزاري في ذي الحجة سنة ٦٠ ببغداد يقول « هو من أهل المغرب سكن الإسكندرية وله التصانيف الحسنة وكتاب الحديقة ألفه على نمط اليتيمة للثعالبي » ثم قال العماد بعد ذلك « وقع إلى ديوان أبي الصلت في دمشق فأخذته وانتخبت منه ، وكل شعره مليح ، وقد قرأت ديوان شعره بتاريخ سنة **٥٢٢**[١] ولا شك أنه عاش بعد ذلك »[٢] .

وأورد العماد بعد هذا منتخبات من شعره على ترتيب الحروف فجاءت في نحو أربعين صفحة ، وفي ذلك ما فيه من الدلالة على

---

(١) يعني صاحب الخريدة بهذه العبارة انه قرأ نسخة من ديوان ابن أبي الصلت مؤرخه بالتاريخ المذكور .

(٢) تقدم تاريخ وفاته سنة ٥٢٨ في أصح الأقوال .

استحسان العماد الكاتب لشعر هذا الشاعر . ويلاحظ أن كثيراً من شعره في مدائح أبنائه المعز بن باديس الحميريين ملوك القيروان . ويلاحظ أيضاً أن للعماد على بعض أشعار ابي الصلت شروحا وتعاليق . والحق أن كثيراً من شعره جيد لا يخلو من جزالة . وفيها انتخبه منه صاحب الخريدة أوصاف وحكم وغزل ومديح من ذلك قصيدة في الأفضل سنة **٥١٤** وصف فيها الخبل وأخرى في يحي ابن تميم سنة **٥١٣** وصف بها الحرب وله اكثر من قصيدة في « حسن بن علي بن يحي بن تميم بن المعز بن باديس » وصف في بعضها قصراً بناه ووصف النهر وشجر النارنج :

ويستفاد من كثرة ما نظمه في هذا الأمير أنه كان من ندمائه وشعرائه أو شعراء آل باديس .

قا ل العماد « وقرأت في مجموع السيد أبي الرضا الراوندي بخطه أنشدني الزكي ابن طارق قال انشدني ابن الفياض لأبي الصلت :

ورب قريب الدار أبعده القلى ... ورب بعيد الدار وهو قريب

وما ائتلفت أجسام قوم تناكرت ... على القرب أرواح لهم وقلوب

وأورد له العماد بعد ذلك قصيدة يصف بها « بركة الحبش » ، وقد وصفها أكثر من مرة ، واخرى يذم فيها عبيدة . هذا وشعر أبي الصلت في فن الأوصاف والتشبيهات غير قليل ؛ ويعد فيما نرى من المجيدين في هذا الباب كالصنوبري من المشارقة وابن خفاجة من الأندلسيين فإنه وصف الحدائق والرياض محاسن الطبيعة والاصطرلاب وكلب الصيد والشمع والمجمرة والخيل والجيش وهو يكثر من وصفه ، ووصف الحرب والسلاح . ووصف هرمي مصر ، ولا يخلو شعره من المجون .

الهـــرم

ومن شعر أبي الصلت يصف الهرمين :

بعيشك هل أبصرت أعجب منظرا على طول ما أبصرت من هرمي مصر
أنـافا بـأعنـان السـماء وأشـرفـا على الجو إشراف السماكين والنسر
وقد رقيا نشزاً من الأرض عاليا كـأنهما ثديـان قاما عـلى صـدر

الاصطرلاب

أفضل ما استصحب النبيل فلا تعـدلْ بـه في المقــام والسفــر
جــرم إذا مـا التمست قيمتــه جـل عن التبـر وهـو من صفـر
مختصــر وهــو ذا بـنـقـشتِـه من ملح الـعلم غـير مختصــر
ذو مقلة تـستبــين مــا رمقـت عن صائب اللحظ صادق الفكر
تحمله وهـــو حـامـلٌ فـلكــا لــو لم يـدر بــالبنــان لم يــدر
مسكنـــه الأرض وهـــو ينبئنــا عن جُـلّ ما في السـماء من خبر
أبـــدعـــه ربُّ فكــرة بعُــدتْ غـايـاتهــا أن تقـاس بــالفكـر
فيـه لذي اللب شـاهـد عجب عـلى اختلاف العقـول والفـطر

شهر الصوم

من فكاهاته :

أشهــرَ الصـوم مــا مثلك عنــد الله من شهــر

وإني والـذي شـرف أوقـاتـك بـالـذكـر
ومن بـات يصلي فيـك من شفـع ومن وتـر
لسمـرور بـأن تفنى عـلى أنـك من عمـري

إبحارُ المحبين

تَـوَعـدونـي بـوشـك بينِهِـم والبـين يمحو الـرجـاء بـاليـأس
حتى إذا لجَّجَتْ سـفـائـنهـم ولـجَّ وجـدي بهم ووسـواسي
قلت لصحبي والـدمـع مستبق يـظهـر مـا بي لأعـين النـاس
ما ركبوا البحـر بل جـرت بهم في بحـر دمعي ريـاح أنفـاسي

في السجن

يا رُب ذي حسدٍ قد زدتُه كمداً إذ رام ينقص من قدري كما نقصا
إني رخصت ولم أنفق ولا عجب للفضل في زمن النقصان إن رخصا
وإن حُبست فخير الطير محتبس متى رأيت حـداة أودع القفصـا

وصف فرس

قال العماد وله وذلك مما أنشدنيه نصر بن عبد الرحمن الاسكنـدراني الفزاري ببغداد قـال أنشدني أبـو الحسن علي بن الحسن بن معبـد القرشي بالإسكندريـة قال أنشـدني أبو الصلت لنفسـه بالمهـدية سنـة ٥١٩ في داره يصف فرساً .

وأشهـب كـالشهـاب أضحـى يـلوح في مُـذهَـب الجِـلال
قـال حـسـودي وقـد رآه يُجـنب خلفـي إلى الـقـتـال
من ألجم الصبـح بـالـثـريـا وأسـرج الـبـرق بـالهـلال

قـال أمية عملت هـذه الأبيات قبـل أن أسمـع بشعـر ابن خفـاجـة الأنـدلسي وأورد بيتين لـه في وصف فرس ، وعلق العمـاد على ذلـك بهذه الكلمـة « مـا أعجب تـوارد خـاطـرهمـا وهمـا في زمـان واحـد من بلدين متباعدين » .

الكسب والعمل

لا تقعـدن بكسـر البيت مكتئبـا　　تفنى زمـانـك بـين اليـأس والأمـل
واحتل لنفسك في شيء تعيش بـه　　فـإن اكـثر عيش النـاس بـالحيـل
ولا تقـل إن رزقي سـوف يـدركني　　وإن بعـدت فليس الرزق كـالأجل

رهن الاعتقال

هموم سكنَّ القلب أيسرها مُضني　　ووفد خطوب بعضها المهلك المفنى
عـذيري من دهـر كأني وتـرتـه　　ببـاهر فضـلي فـاستقـاد بـه مني
تعجلني بـالشيب قبـل أوانـه　　فجرعني الدُرديَّ من أول الدِّن
ومـا مرَّ بي كـالسجن منه مُلِمـةٌ　　وشرٌّ من السجن المصاحب في السجن

رثاء فارس

من قصيدة في مرثية نُمى بن زيَّاد من بني هلال :

أتـدري من بكتـه البـاكيـات　　ومن فجعت بمصـرعـه النُّعـاة
ألاّ فُجعتُ بـابَلج من هـلالٍ　　عـليـه لـكـل . . [1] سِـمـاة
ضمينٌ أن تُكـادَ بِـه الأعـادِي　　مَـلِيٌّ أن تُـنَـالَ بـه التِـراة
بحيثُ تكنِّـه السُمـر العـوالي　　وتكنفـه الجيـادُ الصـافـنـات

---

(١) في البياض كلمة لا تقرأ . وصورتها قريبة من صورة « مكرمة » .

ولـو غَـير الحِمـامِ بَغى نُمَيـاً	لفَـلَّ شَباه أُسـرتُـه السَّـراة
وَهَـبَّ لآلِ زيّـادٍ أسُـودُ	بَـراثُنها السُيُـوفُ المرهفـات
واحسنُ مـا تُـلاقيهم وجـوهـاً	إذا كلحتْ من الـطعنِ الكُمـاةُ
واسمـحُ مـا تُوافيـهم أكْـفـاً	إذا ذَهـبتْ بـوفـرهـم الهبـاةُ
وخـيرُ ذخـائـر الدُّنيا لـديهم	جَـوادٌ أو حُـسـامٌ أو قـنـاة
فـما عـبثـت بلبّـهـمُ الحُـميّـا	ولا شـربتْ عقـولهم السُقـاة
وَلا حَضَـروا لأنْ العـزُّ شـيء	تـضمَّـنـهُ الـبـداوةُ والـبُـداة

رثاءُ أم

رُزَؤْتُكِ أحفى الناس بِي وأبَّرهم	وأكبـرْ بفقـدِ الأُم رزءاً وأعـظم
فـأصبحَ دُرّ الشعـر فيكَ مُنّـظما	وأصبـح دُرُّ الدمـع غـير مُنـظم

وفاة ابن أبي الصلت :

ختم العماد مختاراتـه من ديوان ابن أبي الصلت بـذكر تـاريخ وفـاته قـائلا أهـدي إليّ القاضي الفـاضل حـديقة أبي الصلت وقـرأت في آخرهـا مكتوباً « توفي الشيخ الأجَلُّ أمية بن أبي الصلت يوم الاثنين ١٢ محـرم سنة ٥٤٦ وقرأت في موضع آخر أنه توفي في المحرم سنة ٥٢٩ » .

هذا ما جاء في هذا المكان من كتاب الخريدة . والصحيح فيما يتعلق بتاريخ وفاة أبي الصلت أنه توفي سنة ٥٢٩ وأما الذي توفي سنة ٥٤٦ فهـو وَلدٌ لأبي الصَّلت اسمه « عبد العزيز » توفي بعد والده بسبـع عشرة سنـة .
ولوالده بيتان لطيفان يتضمنان وصيته له وهما :

عـبـد الـعـزيـز خـليـفـتـي	رَبُّ السـماء عليـك بـعـدي

أنـا قـد عهـدت إليـك مـا تـدريـه فـاحفظ فيـه عهـدي

هـذا وللقـاضي ابن خلكـان كلمـة نَسَبَ فيهـا الغلط الى العمـاد الكاتب في تاريخ وفاة أبي الصلت ، وكان ابن خلكان بعيـداً عن الصواب في مُلاحظته المذكورة .

أدباء عاصروا أبا الصلت وكاتبوه :

ومما يدل على أن الشاعـر الأديب أبا الصلت مَلكَ إعجـاب العماد الكاتب فصلٌ من فصول الخريدة عقده لذكر أدباء عاصروه اوكاتبـوه وذلك استناداً إلى ما ورد في ديوان شعره وفي كتـابه المـوسوم بـالحديقـة ، ويُستفاد من ذلك أن ديوان أبي الصلت تضمن مـا دار بين صـاحبه وبـين فريق من أعلام الأدب والشعر في عصره من مشاعرات ومراسلات فهو من الدواوين الممتعة . ومن أولئك الشعراء الشاعـر الفحل المُجيد أبو جعفـر عبد الـوليّ المعروف بابن البتي[1] مَدحه أبـو الصلت بأبيـاتٍ جيدة . ومنهم أبـو رجاء الكاتب وابن بشر التنوخي وآخرون من هذه الطبقة .

ابن فضال الرحالة القيرواني :

من أبـواب الخريـدة بابٌ عنـوانه « في ذكـر جماعـة من أهل المغـرب وَرَدَوا الشام والعراق » وَرَد فيه ذكر ابن فضال الأديب الرَّحالة القيـرواني ، وهو أبو الحسن علي بن فضّال القيرواني المجاشعي النحوي ، اورد له نسبـاً طـويـلا إلى مجـاشـع يعني أنـه من تميم . قـال العمــاد قـرأتُ في « مؤلف السَّمعاني » أنه هَجَر مسقط رأسه ، أي القيروان بعد خرابها يعني في كارثة

---

(١) هو في نسخة القلائد المطبوعـة ابن « البني » بالنـون وورد في كتاب المطرب لابن دحية مرة بالتاء وأخرى بالنون .

بني هــلال وسليم في منتصف المادة الخـامسـة ، وطفق يـدرج في بسيط الأرض ذات الطول والعرض حتى ألقى عصاه بِغَزنَـة[1] فـدرت لـه أخلافها . واتفقت له تصانيف بأسامي أكابر « غَزَنَة » سـارَت في البلاد ثم عادَ إلى العراق وانخرط في سلك الخدمة في النظامية مع أفـاضل الآفـاق ، هـذا ما أوردَه المُصنّف نقلاً عن كتاب السمعـاني ثم ذكـر أنـه مـات سنـة ٤٧٩ . قـال السمعاني . قـرأتُ بخط شجاع بن فـارس الشهـرزوري أبي غالب أنشدنا أبو الحسن علي بن فضال وأورد له مقطعات اكثرها في الغزل وهي من إنشاد أدباء خراسان . وقـال قرأتُ في بعض الكتب للمجـاشعي يمدح نظام الملك وأورد له بيتين في تَفْضيله على الصاحب ابن عبـاد . وممن ترجم لأبي الحسن علي بن فضال هذا ياقوت الحموي[2] ويستفاد من هـذه الترجمـة أنـه عـالم قيـرواني رحـالـة جـاب أقـطار الشـرق في طلب العلم والحديث . ومات في بغداد سنة ٤٧٩ وله تصانيف غير قليلة[3] .

أبو الحكم المغربي الشاعر الماجن :

هذا أديب غريب الأطوار من أدباء أواسط المائة السادسة في المشـرق مغربي الأصل ولكنه من مواليد اليمن ، قدم بغداد في خلافـة المقتفي وأقام فيهـا مُدّة ، ثم خـرج إلى الشام : وكـانت لهذا الأديب المـاجن صلة وثيقة بعم العماد الكاتب صـاحب الخريـدة وكان من أعيـان الدولـة السلجوقيـة والعماد يعنى كثيراً بالثناء عـلى عمه المـذكور ويشيـد بذكـره . ورد ذكره في جملة من مصنفاته ولا عجب فإنه عـرف بالانتسـاب إليه فقيـل له « ابن اخ

---

(١) غـزنة حـاضرة معـروفة من حـواضر بـلاد الافغان وفيهـا أو في ضاحيـة من ضواحيها قبر البيروني أبي ريحان .

(٢) حرف العين من معجم الادباء لياقوت الحموي .

(٣) ترجم ابن بسام في الذخيرة لأبن فضـال قيرواني آخـر اسمه عبـد الكريم لا على أورد طائفة غير قليلة من شعره .

العزيز » وهو لقبه[1] لذلك جاءت ترجمة الشاعر « أبي الحكم المغربي » في الخريدة من التراجم الممتعة المستوفاة حافلة بأخبار هذا الأديب . والحق أن المؤرخين المعنيين بالترجمة لأبي الحكم المغربي غير قليلين ترجم له ابن الدهان الفرضي في تاريخ جمعه وذكره ابن الدَّبيثي في تاريخه . وأورد له القاضي ابن خلكان ترجمةً حسنة[2] . ونقل فيها شطراً مما جاء عنه في الخريدة . هذا وقد اكتفينا بملخص ما أورده عنه العماد الكاتب والقاضي ابن خلكان :

قال العماد الكاتب « الحكيم الأديب أبو الحكم عبيد الله بن المظفر ابن عبدالله المريني المغربي صاحب عمي الشهيد العزيز ابي نصر أحمد بن حامد كان طبيب (البيمارستان) الذي كان يحمله اربعون جملاً المستصحب في معسكر السلطان محمود السلجوقي حيث خيم ، وكان ابن المرخم يحي بن سعيد الذي صار أقضى القضاة في الأيام المقتفية ببغداد فصّاداً به وطبيباً ، وكان ابو الحكم المذكور كثير الهزل والمداعبة دائم اللهو والمطايبة . سمعت بعض أصحاب عمي يقول « كان يأتي إليه الغلام وما به شيء فيُريهِ نبضه ويقول تصلح لك الهريسة » وما زال ملازماً العّم ، إلى حين نزول الحادث المُلمّ فآلى ألا يقيم بالعراق بعده وركب إلى دمشق وأقام بها إلى أن وافاه الأجل المحتوم » .

---

(١) لأحمد بن حامد الأصفهاني الملقب بالعزيز عم العماد صاحب الخريدة ترجمة في وفيات الأعيان (١: س ٧٥ ـ ٧٨) أورد فيها حادثة قتله في تكريت سنة ٥٢٥ وكان مولده سنة ٤٧٢ في أصفهان ويقول ابن خلكان كان كبير القدر في الدولة السلجوقية قصده بنو الحاجات ومدحه الشعراء واحسن جوائزهم وللقاضي الأرجاني صاحب الديوان مدائح فيه .

(٢) الوفيات ١ : ٣٤٤ ـ ٣٤٥ ومن مقابلة ما أورده ابن خلكان عنه بما جاء في هذه النسخة من كتاب الخريدة يتضح لنا سقم النسخة المذكورة .

(٣) اورد ابن خلكان بعد اسم عبد الله في نسبه ابن محمد الباهلي الحكيم الأديب المعروف بالمغربي .

هـذا ما قـاله العمـاد عنه وتـلى ذلك كلمـة عرّف فيهـا أدبه ووصف شعره فقال « خَلَط المدح بالهجو ، وشاب الكـدر بالصفـو . ونظمـه في فنه سلس ، ومُقطَّعاته مقطعات للأعراض ، مفوّقات إلى الأغراض ، إذا جال في ميدان القريض يؤمن عِثاره . ولا يُشق غباره وله قصائـد غراء في مـدح عمي العـزيـز فقـد استغنى في نعمتـه وعـرف في دولتـه . وتلك القصـائـد والمدائح نهبت في جملة ما نهب من كتبه . ولم يقـع إليّ من شعر أبي ا الحكم إلّا جزازات من جملة ما نظمه بـدمشق في كتاب سمـاه نهج الوضاعة لأولي الخلاعة[1] فاثبتُ من الجزئين المقطوعين ما استطبته وتـركت ما عبتـه وكان أعارني الجزءين ببغداد الشيخ البائع يحي بن نزار ، فمن ذلك قصيدة يمدح بهـا منير الـدولة حـاتم بن محسن بن سرايـا في سنة ٥٤٠ وهـو من نـظيف نظمه » .

هذا ما قاله العماد وأورد بعد ذلك قصيدة طـويلة ويكثر فيـها أورده العمـاد الكاتب من شعـره الهزل والمجـون على وجـه يستفـاد منـه أن هـذا الشاعر طبع على خفة الروح وحـرارة النكتة ، ومن ذلـك قصيدة يـرثي بها الإسفهسلار أتابك زنكي بن آق سُنقر وفيها هزل ونكت كثيرة .

وفي الترجمة لهـذا الشاعـر يقول ابن خلكـان : أصله من أهل المـرية بالأندلس ، ومولده ببلاد اليمن . ذكر ابن الدهان الفرضي في تاريخ جمعه أن أبا الحكم المذكور قدم بغداد وأقام بها مدة يعلم الصبيان . وأنه كان ذا معرفة بالأدب والطب والهندسة . وقال غيره كـان كامـل الفضيلة جمع بـين الأدب والحكمة ، وله ديوان شعر جيد ، والخلاعة والمجون غالبان عليه .

---

(١) في الوفيات ١ : ٣٤٤ نهج « الرضاعة » لا نهج الوضاعة .

أبو الحكم وأخباره في دمشق :

لأبي الحكم المغربي هذا في دمشق أخبار وما جريات ظريفة تدل على خفة روحه . قال ابن خلكان رأيت في ديوانه أن احمد بن منير الطرابلسي كان عند بني منقذ وكانوا مقبلين عليه ، وكان بدمشق شاعر يقال له « أبو الوحش »[1] وكانت فيه دعابة وبينه وبين أبي الحكم مودة والفة . فعزم أبو الوحش أن يتوجه إلى شيزر ويمدح بني منقذ . والتمس من أبي الحكم المذكور أن يكتب إلى ابن منير بالوصية عليه فكتب أبو الحكم إليه :

أبا الحسين استمع مقال فتى ... عوجلَ فيما يقول فارتجلا
هذا ابو الوحش جاء يمتد ... ح القوم فنوِّه به إذا وصلا
وخبِّرْ القوم أنه رجل ... ما أبصَرَ القوم مثله رجلا
تنوب عن وصفه شمائله ... لا يبتغي عاقل به بدلا
وهو على خفة به أبداً ... معترف أنه من الثقلا
يمت بالثلب والرقاعة والسخـ ... ـف وأما بما سواه فلا
فسمه إن حل خطة الخسف ... والهون ورحب إذا رحلا
وسقّه السم إن ظفرت به ... وامزج له من لسانك العسلا

وله اشياء مستملحة منها مقصورة هزلية ضاهى بها مقصورة ابن دريد من جملتها قوله :

وكل ملموم فلا بد له ... من فرقة لو لزقوه بالغرا

---

(١) من شعر أبي الحكم المغربي في الخريدة قصيدة في الأديب الهيّي يوصيه أبو الحكم فيها بمهاجرة أبي الوحش الأديب الدمشقي المذكور .

القضاء والقضاة :

هـذا والقاضي ابن المـرخَّم السابق ذكـره في هذه التـرجمة هـو الذي يقول فيه أبو القاسم هبة الله بن الفضل الشـاعر البغـدادي المعروف بـابن القطان .

يا ابن المرخم صرت فينا قاضياً	خرفَ الزمانَ تراهُ أم جُن الفلك
إن كنت تحكم بـالنجوم فـربمـا	أمـا بشرعِ محمـد من أين لـك

وفي هـذا القـدر من التعـريف ببعض من وقـع عليهم الاختيـار من شعراء هذا القسم من الخريدة كفاية . وهـو القسم الذي خصصـه المؤلـف لشعراء الأندلس والقيروان والمغرب وصقلية .

ولا بد لنا في ختام هذه الدراسة من التأكيد على المعنيين بـالبحث في تراثنا العربي القديم من المخطوطات أن يثابروا عـلى التنقيب عما ضـاع من تلك المصنفات الممتعة التي اقتناها العماد الكاتب ورجع إليها وعـول عليها في كتـابه . ومن أهمهـا الكتب الآتية (١) كتـاب الأنموذج لابن رشيق (٢) كتاب الحديقة لأمية ابن ابي الصلت القيرواني المغربي (٣) كتاب المختار من النـظم والنثـر لأفـاضل أهـل العصـر لابن بشـرون المهـدوي (٤) كتـاب الجنـان ورياض الأذهـان للرشيـد بن الـزبـير الأسـواني (٥) تكملة كتـاب رياض الأذهان المذكور لأسامة بن منقـذ (٦) مجموع ابن الصيـرفي المصري (٧) أبكـار الأكفار لأبي عبـدالله مُحمَّـد بن شـرف القيـرواني الأنـدلسي . وتوجد على الغالب نسخة منه في خزانة كتب الرباط بـالمملكة المغـربية (٨) ديـوان أمية ابن ابي الصلت (٩) ديـوان تميم بن المُعِز بن بـاديس صـاحب إفـريقيـة (١٠) الـدرة الخـطيـرة من شعـر شعـراء الجـزيـرة لابن القـطاع الصقلي . وهو من أمتع ما ألّف في موضوعه وقـد اختصره بعض المصـريين ولا وجود له ولا لمختصره اليوم (١١) ذيل تاريخ بغداد للسمعاني .

كانت هذه التصانيف من جملة محتويات خزائن الكتب المصرية بين المائة السادسة الى التاسعة غالباً . وليس من المتعذر ان يظفر ببعضها الباحثون إذ بذلوا وسعهم في التنقيب عنها في مظانها من دور الكتب الغنية بالمخطوطات العربية . ومن هذه المظان مكتبات المغرب العامة والخاصة في فاس والرباط ومراكش . وفي الجزائر وتونس . ومن تلك المظان مكتبات مصر العامة والخاصة وفي مقدمتها دار الكتب ومكتبة الأزهر وخزانة بلدية الإسكندرية ومكتبة سوهاج إلى غير ذلك ، ومن ذلك في دمشق المكتبة الظاهرية ومكتبة حلب . ومن المظان التي يحسن التنقيب فيها عن تلك المخطوطات خزانات دول البحر المتوسط وما إليه كمكتبة الاسكوريال ومكتبة الفاتيكان في رومه ومكتبة ميلانو ، والمكتبة الأهلية في باريس وبعض مكتبات المستشرقين في الدول المذكورة . وما يقال بشأن التنقيب عن هذه المآخذ ، يقال عن بقية ذخائر الأندلسيين والمغاربة والمصريين ومصنفاتهم في فنون الآداب الأندلسية ، منها ما ألف في عصور الفاطميين ومنها ما ألف في عصور الأيوبيين . وفي كتابنا هذا ذكر لبعض اسماء تلك المصنفات . وهذه الكتب كانت معروفة متداولة في مصر والشام ، ولها ذكر في كتب المؤرخين والمصنفين في التراجم والطبقات كابن خلكان والصفدي وابن فضل الله العمري والذهبي والسيوطي ، وفي عصور هؤلاء المصنفين كثرت وفود الأندلسيين والمغاربة وهاجر من هاجر من أعلامهم إلى مصر والمشرق ومعهم ذخائر من الكتب المصنفة في أدب بلادهم أو في تاريخها أو في غير ذلك من الموضوعات . ولا يتعذر الظفر ببعض هذه الذخائر بعد بذل الجهد في التنقيب . كما ظفر الباحثون قبل هذا بجملة من دواوين شعراء الأندلس والمغرب وصقلية منها ديوان ابن حمديس وديوان ابن خفاجة وديوان ابن زيدون وديوان ابن دَرّاج القسطلي وديوان المعتمد بن عباد أو بطائفة من تصانيفهم في الفلسفة والأدب والتاريخ والبلدان والطب واللغة والتفسير منها عدة من مصنفات ابن رُشد وبعض مؤلفات ابن طفيل وعبد الواحد المراكشي صاحب المعجب والحافظ ابن دحية مؤلف كتاب المطرب من شعر شعراء المغرب وكتاب النبراس في خلفاء بني

العباس والأديب ابي الحسن بن سعيد مؤلف كتاب المغرب والقرطبي صاحب التفسير ولسان الدين ابن الخطيب مؤلف كتاب الأعلام والإحاطة إلى كثير غير ذلك . تولانا الله تعالى بتوفيقه إنه ولي التوفيق .



المحتويـــات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



فهرس الأعلام

فهرس للفرق والقبائل والجماعات

فهرس البقاع والبلدان



فهرس الكتب والمراجع


رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


اقرأ
للنشر والتوزيع والطباعة